حسين مروّة

الناقد والمفكر التقدمي

١٩٠٨-١٩٨٧

بقلم:
عيسى فتوح

الدكتور حسين مروّة أديب وقاص ومفكر، وناقد أدبي لبناني، وأستاذ جامعي تقدمي، وقامة شامخة من قامات النضال الوطني التحرري، ورمز متألق من رموز الفكر العربي المعاصر..

ولد عام ١٩٠٨ في بلدة "حداثا" في قضاء "بنت جبيل" على الحدود اللبنانية الفلسطينية ولما أنهى دراسته الثانوية، سافر عام ١٩٢٤ إلى العراق لدراسة العلوم الإسلامية في جامعة النجف الدينية.

بدأ اهتمامه بالكتابة الأدبية منذ سنوات دراسته الأولى في عشرينات القرن العشرين، فكتب القصة والمقالة والنقد الأدبي والشعر والبحث.. شارك عام ١٩٤٨ أديباً وإعلامياً وعملياً في أحداث الوثبة العراقية التي أسقطت معاهدة بورتسموث البريطانية مع حكومة العهد الملكي آنذاك، ولما حدثت الردة بعودة نوري السعيد إلى الحكم عام ١٩٤٩ طُرد من العراق، فعاد إلى لبنان، واستأنف الكتابة الأدبية في جريدة "الحياة" لكامل مروّة طوال سبع سنوات، وكان يحرر زاوية "مع القافلة" يومياً.

أسهم في تأسيس مجلة "الثقافة الوطنية" وإصدارها وتحريرها، وهي المجلة التي أدت دوراً طليعياً للأدب والفكر التقدمي في الوطن العربي كله، وتابع هذا الدور في تأسيس مجلة "الطريق"، وتأسيس "المجلس الثقافي للبنان الجنوبي".

حاز على الدكتوراه في الفلسفة من معهد العلوم الاجتماعية في موسكو عام ١٩٧٤، بأطروحة عنوانها "النزعات المادية في الفلسفة

العربية والإسلامية"، كما مُنح جائزة "اللوتس" عام ١٩٨٠، وجائزة الآداب والفنون من جمهورية اليمن الديموقراطية عام ١٩٨٠ أيضاً.

اغتيل يوم الثلاثاء في السابع عشر من شباط عام ١٩٨٧ وهو في منزله في بيروت، وبين زوجته وأولاده، حين تسللت الجريمة العمياء في ثوب الخديعة إلى سريره، واستباحت دمه بلا شفقة أو رحمة، وهو رهين المحبسين: الشيخوخة والمرض، ففجعت بهذا العمل المنكر أفئدة قرائه ومريديه ورفاق دربه، والمعجبين بفكره النيّر، وآرائه التقدمية التي حاربت الظلم والظلام، ووقفت سداً منيعاً في وجه الرجعية البغيضة، والطائفية الدينية والسياسية في لبنان.

وبمناسبة الذكرى العاشرة لاستشهاده، بادر المجلس الثقافي للبنان الجنوبي إلى إقامة حفل تأبيني له في الثامن والعشرين من شباط عام ١٩٩٧، أسهم فيه فريق من رفاق دربه، وأصدقائه ومقدّري دوره الكبير في مجالات الفكر الطليعي، والنقد الأدبي، والبحث العلمي في شؤون التراث العربي والإسلامي أذكر منهم: محمود أمين العالم من مصر، والدكتور حامد خليل والدكتور طيّب تيزيني من سورية، والدكتور أسعد دياب رئيس الجامعة اللبنانية، والدكتور انطوان سيف، والاستاذ محمد دكروب (رئيس تحرير مجلة الطريق)، والاستاذ حبيب صادق (أمين عام المجلس الثقافي للبنان الجنوبي) من لبنان.. وقد ألقت الكلمات التي تفضلوا بها المزيد من الضوء على جوانب كثيرة من سيرته وفكره ونضاله، ثم قام المجلس الثقافي للبنان الجنوبي بالتعاون مع دار "الفارابي" في بيروت بنشر تلك الكلمات في كتاب مستقل بعنوان "حسين مروة في مسيرته النضالية فكراً وممارسة"، وقد ضم الكتاب إلى جانب الكلمات نصين مهمين يعودان إلى المرحلة العراقية من مراحل حياته، لكونها مرحلة التأسيس المزدوج لثقافته التراثية وثقافته التقدمية، بحسب تقديره الشخصي، النص الأول بعنوان "من النجف دخل ماركس حياتي"، والثاني بعنوان "أوراق من مسيرتي وكلمات بمنزلة الوصية"، أعدهما للنشر الأستاذ محمد دكروب.

آثاره الأدبية والفكرية

مع القافلة، الثورة العراقية، قضايا أدبية، دراسات نقدية، دراسات في الإسلام (بالاشتراك مع محمود أمين العالم، ومحمد دكروب، وسمير سعد)، النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية وغيرها..

كتاب مع القافلة نموذجاً

صدر كتاب "مع القافلة" عام ١٩٥٢ عن "دار بيروت"، وأهداه إلى أولئك الذين يحترقون بلهيب النضال من أجل الغد،

وإلى زوجته التي لولا بطولة صبرها على الحرمان لأصابه الإعياء من أول الطريق، وقد جمع فيه زواياه اليومية التي كان ينشرها في جريدة "الحياة"، تحت ستة عناوين رئيسة هي بشر وكادحون، سياط وجلادون، زحفطون، سلم وحرب، أبطال ومسوخ، هذا أدبنا.. وقد صب في هذه الزوايا خلاصة آرائه وأفكاره في الحياة والناس، والمجتمع، والأدب، والأدباء، والفكر، والفن، والسياسة... وكان من بين من كتب عنهم فيها: الشاعر الياس فرحات، وعمر فاخوري، وهيلين كيلر، وجبران ورفاقه...

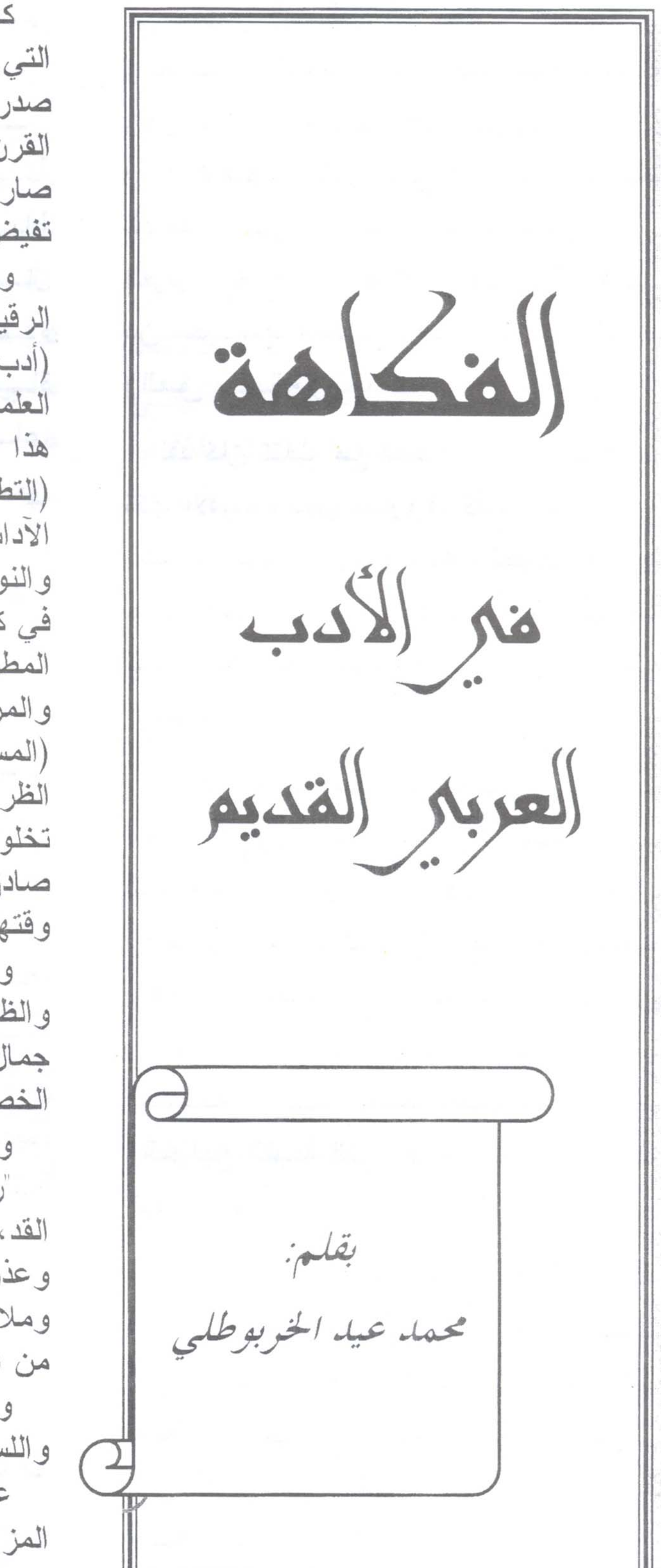
يرى الدكتور حسين مروة أن الأدب هو التعبير الصادق الحي عن حاجة البيئة والحياة والشعب، بحيث يبلغ إلى النفوس، فيشيع فيها الإحساس بهذه الحاجة، ثم ينقل هذا الإحساس من المراكز الانفعالية العاطفية إلى مراكز الوعي والإدراك، فإذا أحسن الأدب هذا التعبير، وأدى هذه الرسالة، فذلك هو الأدب العظيم، وإن لم يكن من الأدب الخالد بذلك المقياس القديم، أي وإن لم يعبّر عن خصائص إنسانية خالدة، بل عبّر عن حاجة إنسانية في ظرف زماني أو مكاني معين، اقتضتها في ذلك الظرف عوامل سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو فكرية...

ويدافع عن الفكر في الفن، كما يدافع عن "الرابطة القلمية" التي أنشأها جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١)ورفاقه في المهجر الشمالي، فيرى أنه أدب الحياة والحرية والمحبة، وسيظل كذلك أبداً، وكان يوماً وثبة الحياة في دم جيل كامل، وكان انتفاضة النور في الظلمة الصامتة الهامدة، وكان صيحة البعث في الرقدة العربية الغارقة، وانطلاقة العبقرية العربية من محبسها العتيق، في موكب الوهج والعَبَق والنبالة والسماحة..

لقد كان كتاب "مع القافلة" من أجمل ما كتب الأديب حسين مروة، لأنه حمل روح الشباب وتدفقه وحيويته وانطلاقه، كما حمل الثورة والفتوة والإشراق، قبل أن تتغلغل الفلسفة وتمتزج في روح كتاباته الأخيرة.

وبعد، فلو لم تمتد يد الغدر في لبنان لتغتال الدكتور حسين مروة، كما اغتالت قبله مهدي عامل، وصبحي الصّالح، وكمال يوسف الحاج، ومصطفى جحا، وعبد الله النجار وغيرهم من المتنوَرين والمنوِّرين (بكسر الواو).. لكان أغنى المكتبة العربية بعدد أكبر من الكتب والمراجع القيّمة التي نحن بأمس الحاجة إليها اليوم.

كل ذنبه أنه كان صاحب نص مخالف، وموقف مغاير، للثابت في أروقة النظام العربي، أو في كهوف الجماعات المحنطة، فدفع ثمن ذلك دمه الزكي، وروحه البريئة التي طارت إلى خالقها لتشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.



كانت الفكاهة ولا تزال من أعرق الفنون التي يضمها علم العرب، كما كان يسمى في صدر الإسلام، أو الأدب كما أخذ يُسمى منذ القرن الثاني الهجري، وفي القرن الثالث صارت الآداب تطلق على فنون المنادمة وما تفيض به من الفكاهة والظرف وأسباب الطرب.

وقد ألف - كشاجم - الشاعر العاطفي الرقيق وطباخ سيف الدولة بن حمدان كتابه (أدب النديم). كما أن هنالك طائفة من مشاهير العلماء، في فجر الإسلام وضحاه، قد ألفوا في هذا الباب منهم الخطيب البغدادي في كتابه (التطفيل) والحصري القيرواني صاحب (زهر الآداب) في كتابه (جمع الجواهر في الملح والنوادر) والثعالبي صاحب يتيمه (يتيمة الدهر) في كتابه (غرر النوادر) و (من غاب عنه المطرب) والسّلامي في كتابه (نتف الظرف) والمرزباني صاحب (الموشح) في كتابه (المستطرف) وابن الجوزي في كتابه (أخبار الظراف والمتماجنين) وهذه الكتب الفكاهية لا تخلو من فوائد علمية وأدبية، بل هي سجل صادق لتاريخنا السياسي والاجتماعي في وقتها..

وعلماء اللغة والأخبار يربطون بين الفكاهة والظرف ويوسعون في معناهما حتى يشمل جمال المظهر والمخبر، وروعة البيان ولطف الخصال..

ومن هذا قول ابن الجوزي:

"ردّ الظرف يكون في صباحة الوجه ورشاقة القد، ونظافة الجسم والثوب، وبلاغة اللسان وعذوبة المنطق، وفي خفة الحركة وقوة الذهن وملاحة الفكاهة والمزاح، وكأن الظرف مأخوذ من الظرف الوعاء، فكأنه وعاء لكل لطيف".

وقال الكسائي: "الظريف الحسن الوجه واللسان".

على أن العرب ينفرون من الإسراف في المزاح، ويرونه أن يكون بقدر ما يجدد الهمة ويزكي النشاط، لذلك قالوا: "الإفراط في المزاح

مُجون، والاقتصاد فيه ظرف، والتقصير فيه ندم".

والكاتبون في الفكاهة والظرف يعودون بها إلى أقدم العصور، وذلك طبيعي، فالضحك من خصائص الإنسان دون سائر الحيوان، وقد عرَّف أهل المنطق القدامى الإنسان بأنه حيوان ضاحك مثلما عرفوه بأنه حيوان ناطق..

لذلك لا نستغرب إذا نسبت روايات الفكاهة والظرف إلى شعراء اللاتين واليونان وأن يروى عن (تراس ومياندر) الكثير من الروايات المضحكات.

ولا نعجب أن ينسب إلى الأنبياء روايات كثيرة فيها ظرف وفكاهة مثل قصة سليمان والهدهد ودعوته، وحيل سليمان للوصول إلى الحقيقة كحادثة الإوز وسارقتها.

شعر التهكم والهزل

قد حفل الشعر منذ القدم بشعر التهكم والهزل، وما الهجاء سوى أحد فنون هذا الشعر، إذ يقوم على التندر بالمهجو والتهكم منه، ومن هجاء أحد الشعراء لبني تميم وتعييرهم بأكلهم للضب الذي يدل على الفقر والمسقبة وهذا لا يتلاءم مع ما يدعونه من مفخرة وكرم قال:

إذا ما تميمي أتاك مفاخراً

فقل: عد عن ذا، كيف أكلك للضب؟

وهذا المكعبر الضبي يقذع في السخرية من بني العنبر الذين لا يغيثون قومه حين يستغيثون بهم ويقول إن من يرجوهم مع أنهم لا يسارعون إلى نجدة كمن يرجو الغوث من الأجنة في بطون أمهاتها فقال فيهم:

وإني لأرجوكم على بطء سعيكم

كما في بطون الحاملات رجاء

هذا وروي الكثير من أشعار التهكم والهزل وقد فرق مؤرخوا الأدب بين الإثنين فقالوا: إن التهكم ظاهره مزح وباطنه جد، والهزل ظاهره جد وباطنه هزل..

وحين أصبح الخلفاء والأمراء يعيشون في ترف طلبوا من يضحكهم ويسري عنهم، لذلك كثر الأدباء من شعراء وغيرهم على أبوابهم لإضحاكهم بالفكاهات والنوادر، ومنهم أشعب وأبو دلامة وأبو الحسين الخليع وأبو العيناء وأبو العبر، حتى كان منهم من يقلد أصوات البهائم والطيور ولهجات الأقطار المختلفة تقليداً دقيقاً بأسلوب مضحك، روى الجاحظ عنهم في (البيان والتبيين) أن من أشهرهم أبا ربوبة الزنجي الذي كانٍ يقف بباب الكرخ فينهق فلا يبقى حمار إلا وينهق بعده.

وروى الجاحظ بعض القصائد لشعراء الهزل الذين توفروا على تصوير حالة الضعف والبؤس والفقر، وانتقدوا الحظوظ والأقسام، كما فعل أبو الشمقمق في ذكر فقره وفقر أهل بيته، وبؤس ساكنيه من الفئران ومصيبة قطه الذي أمرضه فقر بيته.

وعند الثعالبي في (يتيمة الدهر) أن أبا محمد بن زريق الكوفي، كان كاتباً شاعراً، وكان من عجائب الدنيا في الفكاهة والمحاكاة، وكان يتردد على مجلس الوزير المهلبي ويحكي له النوادر ويقلد الآخرين فيعجب الناظر والسامع له.

وفي القرن الرابع الهجري صار للشعر الهزلي مجتمع وشعراء متخصصون رأسهم ابن الحجاج البغدادي الذي كان يعتبر صاحب مذهب وأصالة في مدرسة الهزل، وعاصره ابن سكرة الذي اشتهر بهجائه الهزلي بجارية تدعى (ضمرة) قال الثعالبي: "إنه نظم في هجائها عشرة آلاف بيت".

وقيل فيه وبابن الحجاج: "إن زماناً جاد بهما لسخي جداً".

وفي مصر عرف محمد الوهراني في القرن السادس الهجري بإمامته في الفكاهة، وخاصة

برسائله الهزلية ومقاماته التي تفيض بلاغة وظرفاً.

الظرف والفكاهة عند عرب البادية

استفاضت كتب الأدب الفكاهي بأخبار عرب البادية، من ذلك أن الإعرابي في سبيل الظرف والفكاهة كان لا يحفل بالمال والكسب المادي، فقد روى ابن الجوزي أن أبا نواس خرج إلى السوق لشراء أضحية فاجتمع بأعرابي ظريف، فقال أبو نواس "لأجربنه لأرى صنيعه" فسأله شعراً:

أيا صاحب الشاة التي قد تسوقها
بكم ذاكم الكبش الذي قد تقدما؟

فرد عليه الإعرابي:

أبيعكه إن كنت ممن يريده
ولم تك مزاحاً بعشرين درهما

فقال أبو نواس:

أجدت رعاك الله ردَّ جوابنا
فأحسن إلينا إن أردت التكرما

فقال الإعرابي:

أحط من العشرين خمساً فإنني
أراك ظريفاً فاقبضنه مسلما

فدفع إليه أبو نواس خمسة عشر درهماً وأخذ كبشاً يساوي ثلاثين درهماً، نرى مما تقدم أن حديث الفكاهة والذكاء عن أهل البادية العربية مستفيض، ولعل رواة الأدب العربي القدامى قد عنوا به دفاعاً عن مكانة العربي وإن كان بدوياً، ودلالة على أنه يرتفع إلى مصاف أرقى الناس فكراً وأترفهم عيشاً، وإن كان من أهل البادية أهل الخشونة في العيش والحياة الفقيرة المتواضعة، وقد كان لذلك دواعيه في عصر الحركة الشعوبية محاولات الأعاجم الانتقاص من أقدار العرب.

من أعلام الفكاهة العربية

وأعلام الفكاهة في الأدب العربي القديم كثيرون، ولعل بشار بن برد وأبا العيناء من شعراء العصر العباسي الأول يأتيان بالمقدمة، أما أبو العيناء فقد أفردت له دراسة خاصة وقد نشرت على صفحات مجلة الثقافة الغراء، أما بشار بن برد فله أحاجي ساخرة لأعلام عصره صارت مثلاً وسارت على كل لسان وتعجب منها الأدباء، لكنها جرَّت على صاحبها الويلات والعناء، فبسبب هجائه الساخر جافاه واصل بن عكا وحرض على قتله. وهجا بشار بشعره المقذع عمرو بن العلاء الراوية المشهور فقال فيه:

إذا بحثت عن نسب عمرو فابحثه
برفق لأنه سريع الانكسار كالزجاج

ولروح بشار الساخرة فضل عليه فقد قربته من الخليفة المهدي وتغاضى عن إساءته لأقرب الناس إليه فهذا المعلى بن طريف مولى المهدي سأل مرة الحاضرين من علماء وشعراء عن المقصود بالنحل والشراب في الآية ((وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر... يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس)) فقال بشار: النحل والشراب هما اللذان يعرفهما الناس، فقال المعلى: هيهات يا أبا معاذ! النحل بنو هاشم والشراب هو علمهم، فقال له بشار: أراني الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بني هاشم، فقد أوسعتنا غثاثة وقذارة، فغضب المعلى وشتم بشارا، وظن أنه نال منه مقتلاً عند الخليفة، فلما بلغ أمرهما المهدي دعاهما وحدثه بشار بالحديث، فضحك المهدي كثيراً حتى أمسك بطنه وسخر من المعلى.

الفكاهة عند الجاحظ

إذا كان علم الجاحظ في قمة العلم العربي لعصره الذهبي الأول، فإن فن الجاحظ الفكاهي يعتبر قمة الفن العربي البياني لذلك العصر، بل لكل عصر.. ولا عجب في ذلك، فالعلم والفن اخوان متلازمان، والجمال هو رداء الحقيقة وبهاؤها، والجاحظ في الفكاهة يستهدف الضحك والإضحاك، ويرى فيهما خير ما في الحياة، ومصدر القوة والبهاء للأحياء، ويقول في هذا كثيراً مثل قوله: ".. وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب.. لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي، وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علة سروره، ومادة قوته.." ويقول: ".. ومتى أريد بالمزح النفع، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك، صار المزح جداً والضحك وقارا.."

لذلك شاعت الفكاهة، وعواملِ السرور في كتاباته، ويرى ذلك أمراً ضرورياً لتنشيط الذهن وإدخال السرور على القلب، وتزويد الحي بطاقة خلاقة في مجالي العلم والعمل، ولهذا يقوم كتابه (البخلاء) الذي جمع أروع نوادر الأشحاء وحكاياتهم التي يحتجون بها للبخل والاقتصاد، ويورد من المعلومات الكثير.. فيقول: "ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حجة طريفة وتعرف حيلة لطيفة واستفادة نادرة عجيبة" ويقول: "وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجد.." ومن أروع ما كتب الجاحظ في هذا المقام – وكتابات كلها رائعة – (رسالة التربيع والتدوير) التي سخر فيها من الوزير أحمد بن عبد الوهاب، ونعته ووصفه بالعرض والضخامة أو التربيع والتدوير.

وقد أقام الجاحظ سخريته على أساليب فنية محكمة.. يخرج في السخرية من موضوع إلى موضوع، ويقلب الوزير على جميع الجوانب، ويمزقه تمزيقاً دون أن يحس القارئ بغير الإعجاب بالأديب، والاندماج في روعة بيانه وجمال تصويره، وقد اعتمد الجاحظ على المتناقضات في السخرية من منظر الوزير ومخبره مثل قوله: "ومن غريب ما أعطيت وبديع ما أوتيت أنّا لم نر مقدوداً واسع البطن غيرك، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك.. فأنت المديد وأنت البسيط وأنت الطويل وأنت القصير.. فيا شعراً جمع الأعاريض، ويا شحماً جمع الاستدارة والطول".

وكذلك يرفع الوزير إلى أعلى عليين تهكماً، ثم ينزل به إلى الدرك الأسفل مبالغةً في الاقتراع والسخرية.. ويقول مخاطباً له: "وأنا أبقاك الله أعشق إنصافك كما تعشق المرأة الحسناء، وأتعلم خضوعك للحق كما أتعلم الفقه في الدين" ويطنب في ذلك أيّما إطناب، ثم ينتقل إلى العلم والحكمة فيسأله ساخراً: "فخبرني ما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك، وعن سماعك من أفلاطون، وما دار بينك وبين أرسطو طاليس.. وأي نوع اعتقدت، وأي شيء اخترت؟ فقط أبت نفسي غيرك.. ولولا أني كلفت برواية الأقاويل ومغرم بمعرفة الإختلاف، كما سمعت من أحد سواك وما انقطعت إلى أحد غيرك"..

وهكذا تهكم الجاحظ من الحياة والأحياء وصاغ تهكمه على أساس من العلم الراسخ والفلسفة العميقة والفن الباهر.. بل إنه تهكم من الحياة كلها بصغارها وكبارها، وعلمائها وأدعيائها، بل سخر مما يسمى بالعظمة وجعله هباءً منثوراً.

ومع ذلك فهو بسخريته يبصرنا بالحياة، ويدفعنا إلى التواضع والعمل، ولنرتفع عن الصغائر كلها..

ونرى الجاحظ بأدبه الساخر قد سبق فولتير وموليير وغيرهما من كتاب أوروبا الساخرين في القرنين السابع والثامن عشر وما تلاهما بعد الجاحظ بألف سنة وأكثر..

لقاء مع
الأديب الشاعر
محمود أسد
الجرح النازف من وريد العروبة

حاوره:

خليل رحمو العجيلي

قبل لقائه كانت في جعبتي أسئلة ذات خصوصية وما أن التقيته وتبادلْنا الحوار حتّى وجدت نفسي في حديقة متنوّعة الأزهار. الحبَّ والصدق يزيِّنُها. يحمل في أوردته همّاً عاماً. ويرفع على كاهله قضايا مصيرية. في كلماتِه سفْرٌ مديدٌ غنيٌ بالذات القومي..

محمود محمد أسد ولادة حلب ١٩٥١. ويحمل إجازةً في اللغة العربية وآدابها. في مكتبته أربعُ مجموعات شعرية منشورة:

١ – قطاف المواسم
٢ – اعترافات برسم القلق
٣ – نزيف الأرصفة المتعبة
٤ – أحزاني تعلن العصيان.

وفوق ذلك كله مخطوطات في الدراسة والقصة والخواطر، إنه أديب له حضورُهُ في الدوريات العربية والمحليّة، يعمل بوضوح، ويسعى بثِقة ودأب.

أترك للِّقاء معه أن يقول مايقوله وفي حديثه متعةٌ وكشفٌ ورَصْدٌ لسيرورة الأدب وصيرورته.

* حلب مدينة الأدب والطرب. المدينة التي حضنت الفارابي والمتنبي وخير الدين الأسدي وأبي ريشة وصباح فخري. ماذا أعطتْك ؟ وما أعطيْتَها ؟

** أخي الكريم! مامن مدينة إلاّ وتسعى لتوطيد حالة من حالات العشق مع الآخر. تمنحه الدفء، وتبعث الأمل. ولكنَّ حلب تمتاز بدفئها التاريخي وعبق القرون التي مازالت تحكي للأجيال الكثيرَ من قصص العشق والحبّ والعطاء والثبات. فهي منهل الإبداع، ومصنع

التآلف والتجانس عبر العصور. أعطتني جرعةً من جرعات الصّمود كما آثارها وتاريخها رغم عاصفات الأيّام مازالت تعطيني الكثيرَ من بياضها رغم سواد شوارعها وكآبةَ أبنيتها التي زحف عليها دولار العصر. وتجّار هذا الزمن. وما أعطيتها لايشكّلُ إلاّ القليل ممّا تستحق.. وما قلتُهُ فيها رافدٌ صغيرٌ من روافد كثيرة تسكب حبَّها لهذه المدينة:

مـنْ قلبها أُرْضِعْتُ قوميتي
أَكْرمْ بحبٍّ يرفعُ النَّسبا
فنهلتُ عَذْبَ علومها فَرَحاً
والعلمُ يسكن أهْلَهُ حلبا
من عشقها أصبَحْتُ في ولهٍ
هيَ والعروبةُ أحْيَتِ العَرَبا

* إذا ماأخذنا بقول ابن خلدون " إنّ الإنسان ابن بيئته التي يعيش فيها. وكذلك الشاعر لايُخْلَقُ شاعراً. بمَنْ تأثّرَ الشاعر محمود محمد أسد من الشعراء العرب والسوريين؟

** هذه المقولة تصدقُ لحدٍّ بعيد، ولكن لها تجاوزاتها، لأنّ هناك مؤشّرات ونبوءات توحي بالإبداع. وهذا التكوين الفطريّ والاستعداد الطبيعيّ يدفعان الشاعر لارتياد المجالس وزيارة المكاتب واقتحام المجالسِ وعالم الأدب.. فلا بدَّ من التأثّر، وَجَدْتُ نفسي في بيئة شعبيّة، مازلْتُ أعشقها وأرتبط بها سكناً وتعاملاً وأجد فيها كلّ الراحة النفسية لصفائها. أخذْتُ منها قراءة القرآن وله فضلٌ عظيم، ولأوّل مرّة أسمع منها السيرَ الشعبية. ثم أحببتُ الشعراء البسطاء المناصرين للفقراء كالرّصافي وحافظ إبراهيم، فتأثّرْت بمضامين قصائدهم. ولكن هناك شعراء لهم نكهة خاصة وجاذبيّة فنّيّة تسيِّرها تقنيّة وحرفة بارعة كالمتنبي وأحمد شوقي ونزار قباني. وأرى أنّ التفاعل مع البيئة والآخر يجب ألاّ يلغي الموهبة بل عليه أن يغنيها ويصقلها. ويبقى الشاعر الحقيقيّ فوق الشبهات بنهجه وشخصيته ونضجه..

* من المعروف أنَّك كتبتَ الشعر على شكله العمود الخليلي وكتبته على شكل شعر التفعيلة. فمتى تكتب كلّ شكلٍ منهما؟

** اسمحْ لي أن أقول بداية: ومتى كان الإبداع الشعريّ يتحكّم به القرار المسبَق..؟ وهل تنفع القصديّةُ المبيَّتَةُ مع الإبداع بشكل عام ومع الشعر بشكل خاص؟ وهو ابن لحظته، الحالةُ والمناسبة وطبيعةُ الشاعر الذهنيّة الآنيّة تفرض الشكل. فكميّةُ السّحب ومن ثمَّ الأمطارُ تحدِّد المسارَ والجدول.. ولستُ ممَّنْ ينوون الكتابة ويتقصّدون الشكل إلاّ في حالات الكشف عن طبيعة وأمزجة بعض الإعلاميين والمثقفين المهيمنين على المنابر والمستبدِّين بأمزجتهم، وذلك لاختبار أذواقهم ومعرفة حقيقة مايجري على الساحة الثقافية ولي تجارب في ذلك.. والإبداع حالة متفرِّدة ترسم شكلها ومسارَها بعيداً عن الأهواء وقريباً من الفنِّ الصادق وإلاّ أصبح بياناً سياسيّاً.

* أفهم من إجابتك السابقة ومن أحاديثك أنّ للشاعر دوراً في المجتمع. هل يقف شاهداً على عصره أم أنّهُ مُؤَثِّرٌ في عصره؟ وما هو دوره

في زمن العالم الذي أصبحَ قرية صغيرة أمام التطوّر السريع ؟

** رغم كثرة طرح هذا السؤال، وقد أصبحَ مألوفاً، ولكنّه يلاحقنا في زمنٍ تتشتَّتُ فيه القيمُ، وتنعكس المفاهيم. فإني لستُ مع مقولة " الفنّ للفنّ " هذه المقولة التي تعزل الشاعر عن مجتمعه، وتبعده عن أهم رسالة حملها أجدادُه. ونحن نُدْرِكُ أثرَ الشعر ودورَه في التهذيب وشحذ الهمم وإيقاد العزائم. فالشاعر يحترق ليطفئ الآخرين، وهو الذي يبسط الظلَّ، ويصنعُ الأملَ لينزعَ الخوف. فكيف يسمح الأديبُ لنفسه أن يصْنَعَ من نفسه شرنقة، وأن يسكن بيت عنكبوت واهياً. فهناك مَنْ أعجبَتْهُ الإقامة في فنادق الدرجة الممتازة والصرف بالدولار واللقاءات التلفزيونية وإقامة الندوات التي أصبحت مُملَّةً ومُبَرْمجةً لتوظيف الإيديولوجيا قبل الأدب. في الظروف الصعبة يبرز دور الشعراء والأدباء والمفكرين وما أقوله ليس وعظاً أو تنظيراً بل حقيقة. فما يجري على الساحة العربية يتطلَّبُ منّا أنْ نكون في قلب الحدث والمعركة. نخوض الأحداث حفاظاً على ثوابتنا ومقدّساتنا بعيدين عن الألغاز الموحشة والإنزياحات المخيفة. وأرى أن الأديبَ والإنسانَ شاهدا عصر ولكن ليس شاهدَ زور يحرِّف الحقيقة ويُشَوِّهُ البياض الناصع..

* سأحاول أن أقتربَ من بعض الأسلاك الشائكة، فالحديث كثر عن المجتمع المدني وعن حريَّة الإبداع في الأوساط الثقافية وانقسم المثقفون على أنفسهم. فأين يقف شاعرُنا من التيّارين وخاصة بعد عدّة زوابع أثيرت حول رواية "وليمة لأعشاب البحر" للروائي حيدر حيدر..؟

** بصراحة أقول: إن مأساة إعلامنا بشكل عام وكذلك مأساة المثقفين بل دعاة الثقافة أنّهم يعيشون عقدة النقص تجاه الغرب والوافد منه مهما كان دون تمعّن ودراية وهم يعرفون نظرةَ الغربِ إلينا. وهم يتابعون موقف الغرب وتحديداً " أوروبا " من المفاهيم الرائجة ومحاربتها. هذه العقدة تجعلهم يقزّمون أنفسهم، يَقْبلون كلَّ وافد ويفتحون له الأبواب دون ملامسة حقيقيّة واستئناس بأصحاب الرأي والخبرة، وهذا ماأدَّى إلى ضياع شخصياتهم، وهم يَجْرون وراء المتاهات والمصطلحات، وهذا وبال عظيمٌ يحطُّ على ثقافتنا الغنيَّة بمضامينها ورقيّها الفكري. فهناك مَنْ فهم حريَّة الإبداع تجاوزاً للحقِّ العام والمقدَّس وتحطيماً واقتحاماً لجدار القيم وحصانة الواقع والشرائع. فحرِّيّة الأديب مقيَّدة بسياج من الأعراف الاجتماعية، وحرّيّة الإبداع ضمن الثوابت كما لاعب الكرة يلعب في مساحة محدّدة وضمن مجموعة من القوانين تضبط إيقاع اللعب وأصوله. أرني مبدعاً يعيش في بيت لابابَ له ولا سياجَ له.. أرني واحداً يقبل أن يشاركه إنسان غريبٌ في الجلوس على مائدة انفردَ بها مع نفسه أو مع زوجته أو ... فهل بمقدور هؤلاء الذين يدعون للحرّيّة أن يتجاوزوا الحدودَ السياسية والإيديولوجيّة التي تحيط بهم وتؤطّرهم؟ ألم يجدوا سوى ضمير الإنسان العربي ومعتقداته وثوابته ليخدشوها ويقتحموا جذورها. وهنا تكمن أهمية الطرف

الآخر.. فأين أصواتهم في ظلِّ هذه المحن التي ترمي ثقلها وويلاتها على أمّتهم.

* في الآونة الأخيرة برزت زمرة من النقاد والأدباء أعطت دفعاً إلى الأمام لقصيدة النثر بحجّة الحداثة. فأين تقف من هـذا المسمّى شعراً ؟

** أستشفُّ من حديثك أنَّ لك موقفاً من قصيدة النثر وتريدني أن أتحدَّث عنك، اسمح لي بالقول: إنَّ الحداثة لاتعني قصيدة النثر فحسب بل هي دعوة شاملة لمستجدات الحياة والفنون الإبداعية. ولكن بخصوص قصيدة النثر فإني أحترمها إبداعاً وأرفضها تسمية بالقصيدة. فموقفي صريحٌ ومبنيٌّ على قناعة بعيدة عن التعصُّب، بل تتكئ على ثوابت تميِّز كلَّ جنس وكلَّ فنٍّ عن سواه.. وأقبل كلمة الحداثة وأدعو إليها إذا كان مدروسة ونابعة من ذاتنا وظروفنا، وهذا ماحدث مع تطوّر الفنون الشعرية، وأرفضها إذا جاءت مشبوهةً ومشوَّهة تتبنَّاها جهاتٌ معروفةٌ ميولها وانتماءاتُها. وهؤلاء يشكّلون خطراً على ثقافتنا وموروثنا وأسأل هؤلاء: هل نستطيع تسمية القطار بالطائرة رغم أداء الوظيفة الواحدة وهل أعتبر الصيدليَّ طبيباً وكلاهما يتعامل مع المريض والمرض..؟ قصيدة النثر تجربة إبداعية جميلة، قد تفوق الشعر الموزون ولكن فقدت العنصر الأهمَّ وهو الإيقاع وهنا مكمن الداء:

بئسَ الحداثةُ أقوالٌ أريدَ بها
دكُّ الجذورِ، وأنتمْ بعضُ مَنْ فُتِنا
بئسَ الحداثةُ قد جاءَتْ بلا أسس
تبغي الإساءةَ، آه كسَّرتْ فَنَنا
الشِّعْرُ مَفْخَرَةٌ للعربِ من زمن
يستوعِب العصرَ والماضي ويدفعنا

* كيف تقرأ الشارع العربي الآن؟ وكيف تريده وتتمنى أن تراه؟

** ياصديقي! الشارع العربي تصعب قراءته بهذه السهولة، فربَّما يكون ذاك النهرَ الهادئ، ولكنَّ تيّاراته من العمق تنطلق. وربّما يكون رماداً يخفي وراءهُ جمراً. فقراءته تحتاج لفسحة من الأمل في الوقت الراهن، يبدو أنّه مصاب بعدوى الكلام، وداء فصل القول عن العمل وتنظيم الوعي العام الشامل. فالوعي الفرديّ نلحظه، ولكنه لايصبُّ في الإطار العام المنظّم. وآمل أن يخرج من ثوبه ويتحرّر من قيود ذاته، وهو قادر على ذلك. أثق بنقائه وإيمانه، وإني متفائل بالمستقبل، وكيف لاأتفاءَل؟ ونحن أمّةٌ استطاعَتْ أن تخرج من كلِّ أزمانها ونكباتها مرفوعة الجبين، وما يجري في فلسطين وبعض الشوارع العربية يبسط ظلال الأمل:

نسجَتْ نجومَ السماءَ قصائدَ عشقٍ
هربْتُ بها خشيةً من رقيبٍ
لأجلِكِ تشرقُ شمسُ الصباحِ
وترسلُ خيطاً من الحبِّ
يَبْحَثُ عن فارسٍ للملاحِ
إليك يسافر كلُّ وليدٍ
كَوَتْهُ أيادي الجناة ..

* سؤال عاديٌّ ومألوف، ماأجمَلُ قصيدة كتبْتَها ولمن كتبْتَها؟

** أترك الحكم للآخرين، وأعتقد أنَّ القصيدة الجميلة العظيمة تحتاج لعمل وحدث عظيمين. فما زلْتُ أبحث عن الحدث العظيم المولِّد للقصيدة الخالدة.. والمبدع لايتوقف عند عمل واحد ليتغنّى بـه. فقصائدي القومية والإنسانيةً أعتبرها قصيدةً واحدةً لم ينته نَظْمُ عقدها بعد.

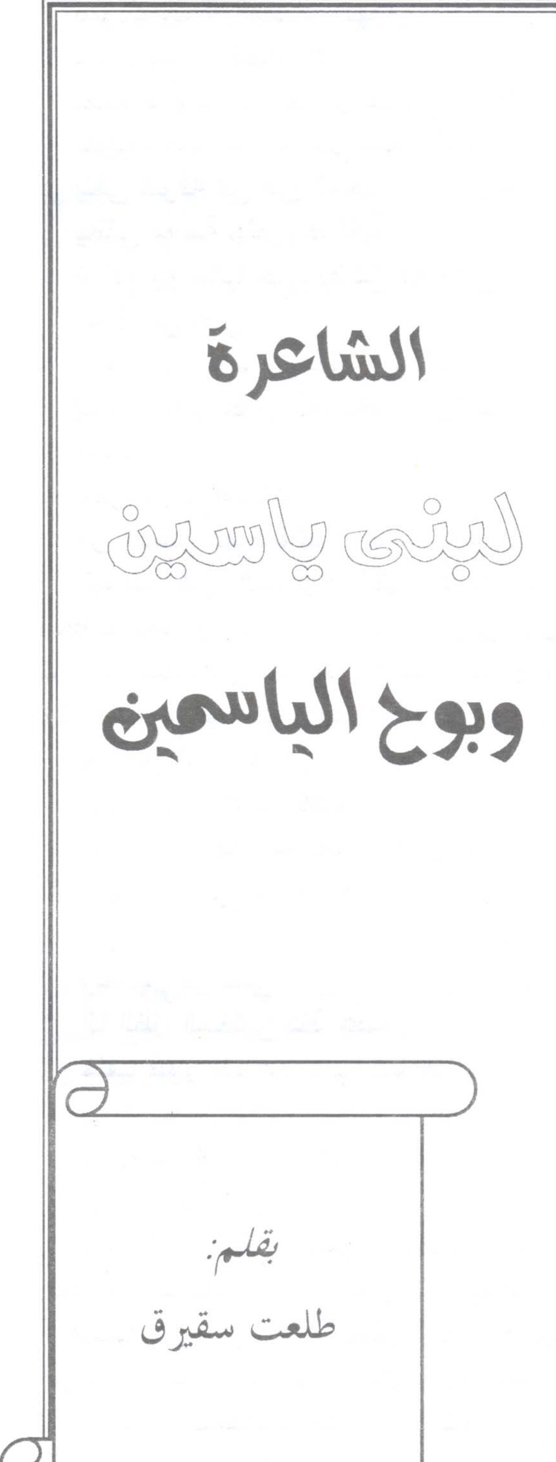
وما زلتُ أبحث عن موقع لي في خارطة الشعر وتسألني عن أجمل قصيدة.

* هل كنْتَ تتمنّى أو تتوقَّعَ سؤالاً موجَّهاً إليك، ولم أسألْهُ ؟ اسألْ نفسك هذا السؤال وأجب عنه.

** السؤال هو: يطغى الحزن على قصائدك. ماتفسيرك لذلك؟ وأجيب عن سؤالي: هل بإمكان الإنسان وهو يواكب أحداث أمَّته ونكبات العالم وصعوبة المعيشة أن يكون غيرَ ذلك؟ وكيف للشاعر أنْ ينسلخ عن واقعهِ وظروفهِ؟ والإنسان تنعكس تجاربه على نفسه وإبداعهِ. ملامح الحزن واردة وتطرق باب العناوين للدواوين التي أصدرْتها "اعترافات برسم القلق – نزيف الأرصفة المتعبة – أحزاني تعلن العصيان " وفي ديواني الأول " قطاف المواسم" هناك فصل خاص بعنوان "مواسم الحزن" والحزن يكلِّل عناوين القصائد " تراتيل قلقة – ظمأ – البحث عن مساحة للدفء – جمر الأسئلة – فصول حزينة – بكائية – أيا موت زرْ – أحزان شاردة – بيان موسم الحزن... والمفردات والجمل والصور أكثر من أن تحصى. وهذا الحزن لاأراه سلبياً، ولا أرسِّخه للاستكانة، ولم أكن في يوم من الأيام مستسلماً للحزن والغمِّ رغم قسوة الظروف.. فالحزن عندي مبعث أمل وتحدٍّ، وهو حزنٌ يصبُّ في صالح الآخرين، حزن يدعو للنور وتجاوز الظلمة ومبعثه صدق الموقف:

كم صرخْنا
وقُلْنا كلاماً معسولاً ،
ونَفَضْنا أدمغةً
قد دفنَّاها في العراء..
مَنْ يقودُ هوانا المُثْقَل بالتبعاتْ ؟
أغنياتي ظمأى
تموت وتمضي بلا دفء
أَعيْني خجلى
زَغْردوا وافرحوا
كلَّ يومٍ حتّى الصباح
لا .. فبعد المآسي
يأتي السّراج.

وما مِنْ ألمٍ صادقٍ إلاَّ وراءَ ه إبداعٌ صادق يلامس مَشاعر الآخرين. وهذا غاية مايرمي إليه الأديب.



أن تدخل عالم الأديبة لبنى ياسين بتعدده، وألوانه، وامتداداته، وغناه، من قصة قصيرة،وقصة قصيرة جدا، إلى رواية، فمقالة ساخرة، وخاطرة، ودراسة أدبية، فأنت ترى إلى جوانب غاية في الجمال والتميز والقدرة على إصابة الهدف أو الوصول إليه بشكل مباشر..

وإذا كان هذا معروف عند قراء الأديبة لبنى ياسين في الوطن العربي كله، كونها قدمت الكثير من كتاباتها تلك إن في الصحف والمجلات والمواقع الالكترونية، وإن في كتبها العديدة المنتشرة على خارطة الوطن العربي.. فإن الجديد الذي لم تنشره بشكل واسع، وكان لي حظ الاطلاع عليه بشكل كامل، هو الشعر، فالشعر عند الشاعرة لبنى ياسين قصائد مشغولة بروعة الإحساس وجمال التصوير وقوة التعبير بشكل كان وما زال يدعوني للتساؤل – وهو سؤال كثيرا ما وجهته لأديبتنا وشاعرتنا لبنى ياسين – لماذا أصرت الشاعرة لبنى ياسين على إبقاء هذه القصائد بعيدة عن النشر في ديوان، ولماذا لم تنشر قصائدها بشكل واسع على الانترنت وهي الأديبة التي عرفت في كل مكان، ومن حق قرائها أن يعرفوا هذا الجانب بكل ما يحمل من تميز وجمال ورقة وعذوبة وعلو، حتى لتكاد قصيدة النثر عند لبنى ياسين تشكل ملمحا هاما يعطي هذا النوع من الشعر دفعا يضيف إليه ويغنيه..؟؟.. وبرأيي فإن كل جديد مغاير يضيف ويعطي ويغني..

وإن كنت هنا أقدم شاعرتنا الأديبة لبنى ياسين من خلال شعرها تحديدا، متجاوزا حرصها على إبقاء هذا الشعر بعيدا عن النشر بشكل واسع، فإنني أجد العذر لنفسي والعذر من شاعرتنا، بأنّ الأدب الجميل يجب ألا يبقى طيّ الكتمان.. فعذرا يا شاعرتنا إن كتبت، وعذرا إن نشرت، فهذا الأديب والشاعر

الصحفيّ الباحث عن كل ما هو جميل في أدبنا وشعرنا أصرّ على أن أكتب، ولأنني أطيعه وأصغي إليه، كتبت.. وسأتحمل بصدر رحب عتب الزميلة والصديقة الشاعرة لبنى ياسين، لأن ذنبي إيجابيّ كوني أوصل للقارئ شهد الكلام وهو من حقه.. فمن أين أبدأ؟؟..

تقول الشاعرة لبنى ياسين في قصيدة "عزاء":

يدعوني لأقدم العزاء
في موتها
مسكين لا يعلم
أنني تلك الميتة
وأن الجنازة..جنازَتي "..

قليلة هي المفردات، قليلة هي الصور، لكن هذا الاتساع في المعنى والاتساع في الاحتمال والانفتاح على عوالم متعددة شيء لا يضاهى.. قد تكون أول فاصلة في قصيدة النثر الاختصار وبناء الدهشة.. وهنا تستطيع لبنى ياسين أن تتقدم بنموذج يحتذى.. أعترف أنّ النهاية فاجأتني وأنني وقفت أمامها مشدودا قابضا على جمرة قد تكون من الياسمين لا النار.. وحتى لا أذهب بعيدا في استحضار وتفصيل هذه البنية المدهشة أورد مقطعا من قصيدة "وطن " تقول فيه:

فلنهشم المرايا
ولنصنعْ من شظاياها
تابوتاً للشمس
ما فائدة المرايا
إذا كنا لا نرتدي وجوهَنا أبداً؟؟.. "..

إن الشاعرة لبنى ياسين تملك مرآة القصيدة السحرية لتعطيها قمرا من حنان ودفء واقتراب من جمالية خاصة.. العبارة عند لبنى نابعة من الذات باشتراط المشاركة والتآلف مع المتلقي.. وكثيرة هي الوقفات التي تنطلق من الدائرة الصغيرة لتوزع امتدادها في كل مكان.. لنسمع قصيدة " صوتك " ونرى إلى هذا الانتقال تقول:

صوتك يتسلق هضاب الهوى
يرسم صدى خطاه بأقدام من نار
يمحو دروب مهدتها يد الضياع
يكتب كلمات حنينه على جبين الشمس
يلقي شوقه في أذن الوجد
يعتلي موجة جنون صاخبة
ترتفع به عاليا حتى يضيق به الأفق
يسيل في دمي
ينحت من تفاصيلي صنما للوقت
يعلقني على جدار الغد بإطار من قمر
صوتك
ليس سوى صوتك
من منحني تعويذة لفرح قادم.."..

أليست هي الشاعرة التي تخبئ الدهشة لتعطينا كما من الجمال لا يحد.. في تواصل مع كل هذا تستوقفني قصيدة " غيمة " مشدودا إلى وتر الشعر، حيثُ تقول فيها:

تتسابَقُ خيولُ فرحي
فوقَ امتداد عشبِ كفيك
تهربُ بي بَعيدا عَن مدائنِ الخوف
تطيرُ بي على أجنحةِ حلم
تمزقُ صمتي
وتصهلُ في دمي
أنا الظل المختبئ منذُ عصور
خلفَ قبورٍ ضاعتْ عنها شواهدُها
وأنتَ مصيرُ الشوقِ القادم
في هيئة غيمة
حبلى بمَطرٍ دافئ

فالشاعرة لبنى ياسين تستفيد هنا من القصة، تستفيد من السرد، تستفيد من التفاصيل، وتنحو نحو أسطرة جو القصيدة.. كل شيء عندها موظف بشكل رائع ليصل إلى هذا السبك المتماسك القوي.. ولك أن تنظر إلى هذا الوصول الجميل في تركيبه وصياغته وصورته فأنت " مصير الشوق في هيئة غيمة حبلى بمطر دافئ " كأنما الحكاية بطول بحر وموجه.. كأنما الصخور تتلقى رعشة الزبد

الحالم وهو يفرد شيئا من ضفائره على سطحها الأملس..

هل ترسم لبنى ياسين صورة الرجل بشكل مغاير؟؟.. هل تريد أن تخاطب الآخر بصوت الأنثى الشاعرة التي لا ترضى لكلماتها ومفرداتها إلا أن تكون صافية مثل مرآة؟؟.. لنستمع إلى لبنى ياسين تقول في " سفر ":

سأقطع المسافات
بين عينيك وقلبي
على متن كلمة
لا يوقفها حراس الحدود.."..

وتقول في " حلم ":

كل الكلمات تنبضُ يا وعدي
تبدو جوفاء في حضرة أصابعك
سيكون عليك أن تعيد تشكيل الوقت
أن تشعل ثلج الغوايات في منبت الحرف
لكي أستطيع أن أنسج لك
سجادة أخرى للحلم.."

وفي " أقفال ":

كيف لمفتاح واحد
أن يفتح قفلين عصيين
قلبي وقلبك "..

الخطاب بكل جوانبه يبني صورة مشعة مضيئة ممتدة.. وهو لا يقارب بأي شكل مباشرة مجانية تقضي على قصيدة النثر في كثير من الأحيان.. والأهم أن خطابها للآخر يعطي دفءا لا حد له دون أي إسفاف أو مداورة في العبارة.. وأجمل ما عند لبنى ياسين، في هذا الشعر كله، صورها المبتكرة دائما وإعطاؤنا كما لا يحد من الإدهاش.. وإن نحن نظرنا لكل قصيدة مما سبق نجد أنّ الاختصار سيد الموقف في كثير من الأحيان.. وهو اختصار ذو دلالة، موظف مشغول بتقنية عالية.. إذ لا داعي لتوسيع العبارة في مكان لا تستحق فيه التوسيع، ولا حاجة لحبس المطر المدرار حيت تكون الأرض بحاجة لهذا المطر.. وباعتقادي أن الشاعرة لبنى ياسين تجيد القبض على برهة الحلم والدهشة والبرق الخاطف بشكل رائع.. تقول في قصيدة شروق":

حيث يشرق وجهك
تختبئ الأرض من ظلها
وتلملم الغيوم ثيابها المبللة
عن ضفة الشوق
وتبعثرني أمطارك الدافئة
فتنحني النجوم لتلتقط أنفاسي
عن أمواج البحر "..

لنلاحظ هذا الانسياب الغريب الجميل في مدّ المفردة نحو مقصدها.. وأيضا هذا الاتجاه الساحر نحو صورة لا يمكن أن تكون عادية مستهلكة.. فلبنى تستفيد من فن التصوير لتلتقط صورا طازجة ساخنة غير ملتقطة بهذا الشكل من قبل.. لذلك تجد أنّ الشعر يعطيها كل فتنته ما دامت تعطيه كل فتنتها.. حالة التبادل هذه تخلق دائما جوا من الألفة بين الشعر وشاعرته، لتصل القصيدة إلى القارئ بهية جميلة فاتنة.. تقول في " حقيبة ":

لماذا على الليل دائما
أن يحمل بين متاعه
حقيبة للحزن العابر
نجدها دائما في جعبة القلب
حتى دون أن نبحث عنها.."

قصيدة لبنى ياسين ذات اتجاهات وسمات عدة، وذات بنية خاصة تقنعك بجمالية قصيدة النثر.. وهي إلى جانب كل ذلك شاعرة تعرف كيف تجعل القصيدة قريبة من شبابيك السحر والسطوع الدائم.. ولي أن أختم هنا بعدة قصائد للشاعرة لبنى ياسين راجيا أن يجد القارئ فيها ما وجدته من متعة لا تضاهى:

خطيئة

لست أنا من قدم أغنياته أضحية للوجع
فأراق دم الفرح

ولست أنا من أوثق الأحلام
والعصافير
لكنني
كلما بحثت عني
وجدتني ضائعة
في متاهات الخوف
أتلمس طريقا نحو التلاشي
لا تمحوني هفوة ناي مصلوب
في أروقة حلم
ولا تمسكني نزوة الرمل الموغل في الحزن
فأي خطيئة تلك التي لم أتطهر منها؟ !

في القاع

لآلاف العصافير الواهمة
التي تطير كل يوم
تفتح أجنحتها للشمس
تنتظرها طلقة صياد ماهر
تهوي بها إلى قاع الأرض
هي التي كانت تحلق في سماء الفرح
لماذا علينا أن نطير
والقاع قدر لأحلامنا

هزيمة أخرى

لعنة هو الفرح عندما يأتي متأخرا
حاملا على كفيه وهج النهايات
وعلى شفتيه
شبح ابتسامة تعلن هزيمتي

انشطار

تعبرني موجة حلم دافئ
تشطرني نصفين
أحدهما يشبهني
الأول يغني للسراب
ويشعل الشمس من جديد
والآخر
يمسك الأرض بكف من حديد

حنيني إليك

هل يبرر احتضاري موت عينيك؟
هل يعلل اختناقي غيابك الأزلي؟
كيف للأشياء أن تضحك
وأنت بعيد
ليس بوسع المسافات
أن تطوي حنيني إليك

خواء

ألقيت في حضن عينيك أوجاع قلبي
ورأيت ظلي يعانق خيالك
ومشيت في ذات الخطى
التي كنت أظنها مرسومة
على خرائط قلبك
فما وصلت إلا للخواء

فراق

بأي اسم أناديك أيها الراحل
بأي دمعة أبكيك
وأي قلب يمكنه أن يحتمل رحيلك
أنت الذي حلفت أنك ستكون دائما هناك
من أجلي
هل رحلت حقاً؟؟

وحدة

ليس مجديا كل الحزن الذي يعتنقني
لكن الفرح ينظر إليّ من بعيد
ينفض أجنحته الملونة
ويرفرف حيث السماء
ويتركني على الأرض وحيدة

نبض

أكتبك بشرياني
على سقف فرح لن يأتي أبدا
ولا أحد يقرؤك غيري
ما بين الكلمة والكلمة
لن تنتبه إلى وجع الدمعة
المسجاة سطرا مقتولا بك
ولا إلى نبض القلب الغافي
على حضن ذكرى

أرق

سأكتب عينيك على حدائق الليلك
لئلا تضيع مني ابتسامة القمر
وأزرع أشواقي في حضن الخوف
لئلا تمر عليّ لحظة لا أشتاقك فيها
سأنسج ملامحك على جفوني
بأصابعي التي ذبلت
لئلا تغيب عن أرقي ليلة حزن

سرّك

سينبت حبك بين كفيّ عشبا أخضر
فلا تقلق على ابتسامة الشمس
لها أن تمنح ما شاءت للعاشقين
ولي أن أحتفظ بسرك
بيني وبين كفي

لوحة

أي غربة أمارس طقوسها
وحدي
فيما تتسلى أنت برسم
كفني

برد

لا تغرب عني
فغروب الشمس يكفيني
كثير على مزاج الأرض
أن تغربا معاً
ما الذي يدفئنا ..بعدها
أنا والأرض

أجنحة

للحزن أجنحة تطارد ليلي
تهديني أرق المسافات
واحتضار الأزمنة
وللفرح جناح مكسورٍ
يقعده فلا يصل أبداً
إلى حافة الروح

ملامح

أي صباح هذا الذي
تشرق فيه ملامحك
عوضاً عن الشمس؟
أي مساء هذا الذي
يبدأ بابتسامتك؟

حكاية

في قلبي الكثير من الحكايات
لكنه لا يقرأ إلا حكاية واحدة
حكايتك أنت "..

لبنى ياسين شاعرة تتقن إعطاء الشعر حقه من العلو ليبدو كما أرادت له بكل بهائه، كما هي في قصصها وكل كتاباتها.. وبالتأكيد فإن الشعر الغنيَ بما يحمل، بكل هذا الألق والدفء والتميز، جدير بأن يقرأ ويصل إلى كل القلوب بتلقائية.. لبنى ياسين تعطي الشعر كل ما في القلب والروح والذات من دفء، فيكون للشعر كل هذا الجمال والروعة..



جماليّة الإشارات الثقافية في شعر حسن النيفي

بقلم: نادر عبدالكريم حقّاني

لكلِّ شاعرٍ ثقافته الخاصة به؛ هذه الثقافة تفجّرها تجربته الحياتيّة من جهة، واطّلاعه على تجارب مَنْ سبقه من الشعراء، أو من عاصره منهم من جهة ثانية، وكلّما قرأ الشاعر، وتنوّعت قراءاته امتلكَ فكراً نيّراً؛ هذا الفكر يغني ثقافته التي لابدّ من ظهورها في إبداعاته التي تجود بها قريحته.

وإذا كان الشعر ديواناً للعرب في القديم يبيّن مفاخرهم، وأهاجيهم، وعاداتهم، وتقاليدهم ويُغنى بشجرة نسبهم، ويعكس بيئتهم فإنَّ الشعر العربيّ قديمه وحديثه تنطبق عليه هذه المقولة.

وقد وُجد شعراء اكتظت أشعارهم بالثقافة التي وجدت في عصرهم، أو التي أخذوها من تاريخ أسلافهم، أو تاريخ الأمم الأخرى، ومن هؤلاء الشعراء: أبو تمّام الطائي، والبحتري، والمعريّ، ودعبل الخزاعي، والشريف الرضي، والمتنبّي، وابن الفارض، وعلي بن الجهم، لأنّنا عندما نقرأ أشعارهم نجد ذلك المخزون الثقافي متجلياً في تلك الأشعار، وإذا ماقرأنا الأشعار التي خطّت في العصر الحديث نجد أنَّ القرويَّ وأبا ريشة، ونزار قبّاني، وبدر شاكر السيّاب، وسليمان العيسى، والجواهري، ومحمود محمد أسد، والشابيَّ وغيرهم من شعراء العصر الحديث تظهر ثقافتهم في شعرهم؛ تلك الثقافة التي كوّنتها استلهاماتهم من التاريخ والأدب، والفلسفة، والعقيدة التي ينتمون إليها.

ولعل الشاعر حسن النيفيّ لا يقلّ شأناً عن هؤلاء الشعراء لأنَّ ثقافته الثرّة تظهر بجلاء في شعره؛ تلك الثقافة التي تمحورت في عشق الله والوطن، والتسامح، والمناداة بالعدالة والمساواة بين البشر، واستحضار أبطال التاريخ العربي كصلاح وخالد وسعد وزنوبيا؛ هذا الاستحضار فيه تناصّ تاريخيّ كما يشير إلى مفكري الأمّة العربيّة وشعرائها كالحلاج، وحسّان بن ثابت، وكعب بن زهير، والشنفرى، والمتنبّي، وعلي محمود طه، وعظماء الحضارة الإنسانية كالشاعر محمّد إقبال؛ هذه الإشارة تظهر التناصّ الأدبيّ، والصحابة الذين رافقوا الرسول ﷺ كعليّ بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة، وبلال الحبشيّ رضي الله عنهم.

وتظهر ثقافة شاعرنا النيفيّ بانتمائه لعقيدته الإسلاميّة، وبتأثّره بالقرآن الكريم؛ هذا التأثّر ناتج عن استقائه ألفاظ من آي الذكر الحكيم، ومعانيه؛ هذه الاستقاء يدخل في إطار التناصّ الدينيّ.

وتشير ثقافة النيفي إلى أصالة شخصيّة شاعر ربّي على عشق الأرض التي أنجبته؛ هذا العشق جعله يصرّح بحبّ الوطن المقترن بحبّ الله لأنَّ الإنسان المحبّ لله يدرك معنى الإخلاص؛ هذا المعنى يجذّر حبّه

لوطنه، ويتّضح هذا الحبّ في قول النيفيّ في قصيدته "قالت لك الدنيا "[١]:

وطني إليكَ أسوقُ كلَّ رغيبةٍ
بدمي وكلَّ نفيسةٍ بكياني
اللهُ ثمَّ هواكَ ليسَ سواهما
رغمَ اقفرارِ العمرِ يزدهرانِ

فهو ينادي وطنه الذي ينبض في دمه مؤكداً عشقه لهذا الوطن وبذله لكلّ غالٍ وثمين من أجله، وقد قدّم وطنه على ذكر الله لأنَّ حبّ الوطن من الإيمان، وهما صنوان لايفترقان مهما تقدّم الإنسان ومهما شعر بالألم وضاقت عليه الدنيا، فإنّ هذا الحبّ يبقى أخضرَ زاهيا بالحياة؛ وعلى الرغم من تقديم النيفي لوطنه في البيت الأول يستدرك هذا التقديم بجعله حبّ الله سابقا على حبّ وطنه لأنّ حبّ الله هو الذي أفرز حبّه الصّادق لوطنه.

ولم تقتصر ثقافة النيفي على التأسيس لحبّ الله والوطن فحسب إذ راح يحزن على الواقع العربي المؤلم الذي تعيشه أرض فلسطينَ العراق والجولان؛ هذا الحزن يتّضح في قصيدته "هدية الرحمن"[٢] المهداة إلى طفلته وجدان إذ يقول فيها:

كم على القدس نخوةٌ أطفأتْها
نشوةُ النفط، واحتضانُ الغواني
أنواحُ النخيل أم بوحُ روحي
أم نحيبُ الإباءِ في الجولان؟
فوق نعشِ الرشيد قد أطرقَ المجـ
ـدُ مكبّاً مُكَسّرَ العنفوان
يالقهر الرجال إذ يسقطُ الحرُّ
أسيراً في قبضة العبدانِ

فالنيفيّ يتحسّر على واقع فلسطين، ويشير إلى انشغال العرب بملذّاتهم، ونسيانهم واجبهم العربي نحوها، ويستفهم متصوّرا نخيل العراق، وهو ينوح لفقد طهارته التي دنّسها الغزاة برجسهم وهو يتألم محاورا ذاته التي تجعله يخال إباء العربي باكيا في الأراضي المحتلّة؛ هذا البكاء يجعله يستحضر صورة الخليفة العباسي هارون الرشيد مشيرا إلى تناصّه مع قوّاد التاريخ الإسلاميّ لأنّ هذا الخليفة كان يغزو عاماً، ويحجّ آخر محمولاً على الأكتاف حاملا معه ذلك التاريخ الحافل بالانتصارات؛ بالحضارة الزاهية هذا التاريخ الذي غدا مطرقاً خجلاً من واقع الأمّة العربية المزري، خافضاً رأسه، حزيناً على سقوط الأحرار البواسل في قبضة أعدائهم الذين ما عرفوا السيادة وأصولها يوما.

والنيفي يتعجّب من هذا الواقع متحسّرا متألّما مستخدماً رموزاً دالة على الأصالة لأنّ مفردة "النخيل" ترتبط بالصحراء، وتوحي بالعراقة كما أنّ مفردة "الإباء" تتّصل بالكرامة التي رُبّي عليها الإنسان العربي، كما أنّ نعش الرشيد رمز للحضارة والعدالة والمساواة والأمن والاستقرار الذي نعمت به دولته في تلك الأيّام.

ويتابع النيفي ربط حاضر أمته المؤلم بماضيها المشرق مركزاً على مفردات دالة على عراقة تلك الأمّة قائلا في قصيدته "هكذا عسعس الليل"[٣]:

يا أمّةً عصبَ التاريخُ جبهتها
بالكبرياء فأمسى هديُها سننا
لهاثُ جُرحِك في جرحي يؤرّقني
أنّى ارتحلْتُ "فمالي عن شفاك غنى"؟

إنّه يلجأ إلى النداء الذي يخرج إلى معنى التعظيم، ويقرنه بالتصوير عندما يجعل التاريخ إنساناً يعصب جبهة أمّته بالكبرياء، مكسباً الكبرياء صورة حسيّة مؤثّرة في المتلقي لأنّ التاريخ جعل أمّته مشرّعة للأمم الأخرى في احترام الإنسان لأخيه الإنسان، والنيفي يتألّم للجراح التي أصابت أمّته في العصر الراهن، وجعلته أرقا يحمل هموم أمّته، ولا ينسى تلك الهموم باحثاً عن علاج ناجع لما أصاب تلك الأمّة.

ويسترسل النيفيّ في الحديث عن الواقع المؤلم الذي تعيشه أمّته العربيّة، ويعيشه شاعرنا بجوارحه قائلا في قصيدته "ابتهال الشموع"[٤]:

أطللْتُ من عمقِ الفجيعةِ أجتلي
طيفَ السعادة من كوى مأساتي
فحملْتُ وهجَ الشمس بينَ أضالعي
ونضارةَ الأحزان في قسماتي
وشربْتُ من ظمأٍ ضرامَ مواجعي
فاستعذبْتُ كأسَ اللهيب لهاتي
وضممتُ عشقَ الأرضِ في صدري كما
كفّاي ضمّتْ وقْدةَ الجمراتِ

لقد نشأ النيفي نشأة وطنيّة مُحسّاً بما يجري بالواقع العربي؛ هذا الواقع المفجع، وهو يبحث عن الحل له متطلعاً إلى التحرّر من الطغاة الذين عاثوا في أمّته فساداً، طامحا للخلاص من الظلم لذا، فهو يحمل في قلبه نور حريّة الإنسان كما ترتسم على وجهه صورة لكآبة كلّ إنسان فجع من أبناء أمّته، وهو يمتثل

الصبر معتداً بذاته أبياً يحتسي آلامه، متلذذاً بها مدمنا على الارتواء منها؛ هذا الارتواء يكسبه الصلابة والقوّة، والعنفوان الذي يجعلني أستحضر صورة الشاعر الأبي بشارة الخوري في قوله:

غــذت الأحــداث منــا أنفســاً
لــم يزدهــا العنــفُ إلاّ عنفوانــا[٥]

وصورة أمير منبج أبي فراس الحمْداني القائل:

ماكنــت إلا الســيف زاد
علــى صــروف الــدهر صــقلا[٦]

ولعل النيفيَ يستلهم من هذين الشاعرين معنى البطولة والصلابة والصبر إضافة إلى واقعه الذي جعله يتحدّى عاشقاً تراب الوطن لأنَّ هذا التراب يلازم قلبه، وقد ضمّه إليه محساً بحرارة الحبّ عبر تشبيه تمثيليٍّ متمثّل بجعل إنسان يضمَ تراب وطنه إلى صدره مقابلا لإنسان يحمل في يديه جمرات ملتهبة، والصورة في هذا الموضع لمسية توحي بحرارة الحبّ، وتجعل المتلقي يتخيّل الموقف.

ويحار النيفي في واقع أمّته، فيقف على هذا الواقع مستحضراً التاريخ التليد، والماضي العريق لهذه الأرض التي دفنت غزاتها، وانطلقت منها الحضارة إلى سائر أرجاء المعمورة في قصيدته "العودة إلى التراث"[٧] حيث قال فيها:

هــلْ ههنــا مثــوى الحــضارةِ والنّهــى
ومهــادُ مجــد غــوابر الــسّنوات
وهنــا تــساقى الــرّومُ خيبــةَ فــألهم
وتنــاثروا مزقــا بكــلَ فــلاة
أتطــلُ مــن عمــقِ العــصور "زنوبيــا"
وتغــصُ حــين تهــمُ بالكلمــات

فهو يتساءل غير مصدّق لما يجري في واقع أمّته مستغرباً كيف كانت هذه الأرض مرقد الأجداد الذين حملوا مشعل الحضارة إلى أرجاء المعمورة كما أنه يستحضر التاريخ عندما هزم أجداده أعداءهم من الروم على يدي عظيمة النساء والقادة العسكريات "زنوبيا" ملكة تدمر؛ هذه المرأة التي حرّرت مصر ومرافئ البحر الأحمر، وسورية الشمالية حتى وصل جيشها إلى كلسيدونية ملحقة الهزائم بالروم، إذ يتمنى النيفيَ حضورها لتشهد واقع الحاضر عندها ستلزم الصمت غاضبة على مايجري.

وفي استحضار النيفيِ لهذه الصور عندما يقول: هل ههنا مثوى الحضارة والنهى؟ تداعٍ لقول بدوي الجبل:

قــف علــى اليرمــوكِ واخــشعْ باكيــا
وتــيمّمْ مــن صــعيد القادســيّةَ
ههنــا مثــوى الــصّناديد الأُلــى
قــدْ لــووا قــسراً عنــانَ الجَاهليّــة[٨]

فالنيفيَ يستجيب لرغبة هذا الشاعر في الوقوف على تاريخ الآباء والأجداد في اللحظة التي تعاني فيها أمّته من ظلم الطغاة على حين أنَّ بدوي الجبل يقف معتزّاً بذلك التاريخ وانتصاراته بينما استحضار النيفيَ فيه خجل وحسرة تنتابه، وتنتاب رموز التاريخ إن شاءت الأقدار أن يحلّوا ضيوفاً على الواقع، ويشهدوا بأمَ أعينهم مايحصل لأبنائهم.

ويعرّي النيفيَ واقع الطغاة الذين لايحترمون العقائد والأديان والكتب السماوية إذ ينتهكون حرمة الأماكن المقدّسة فيقول في قصيدته "تشيد الصحارى"[٩]:

فــي حمــى البيــت يخطــرُ البغــي تيهــاً
ويهــانُ القــرآنُ والإنجيــل
وتنــادوا: أنْ أجمعــوا الكيــد صــفّاً
أقلــح البــأسُ والعتــادُ الثقيــل

فهو يشير إلى ثقافة الأعداء؛ تلك الثقافة القائمة على إلغاء الآخر؛ وعدم احترام معتقداته، وتدنيس أماكنه المقدّسة، وما يؤمن به والتآمر عليه، وتوجيه الضربات القاسية له، ومحاصرته بالعتاد والسلاح حتى يرضخ لأعدائه، ويستسلم لهم.

وإذا كان الأعداء يتسمون بالعنصرية، ويرسّخون ثقافة القوّة معتقدين أنَّ العالم تحكمه شريعة الغاب فإنَّ الشاعر النيفيَ ينادي بالإنسانية، بالإخاء، بالمحبّة والتسامح الذي ربّي عليه، واستقاه من الشريعة الإسلاميّة السمحة القائمة على المساواة ممتثلاً آي الذكر الحكيم "يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"[١٠]. حيث يقول النيفي في قصيدته "هكذا عسْعسَ الليل"[١١]:

أخــي أتــذكرُ إذ ناديْــتُ ملتمــسا
منــكَ الــودادَ لنطــويَ دربنــا الخــشنا؟
وانــسابَ كفّــكَ فــي كفّــي تعاهــدني
أن نــسقيَ الأرضَ، إن شــحَّ النــدى، دمَنــا
أخــي أأنــتَ تمــجُ الــسمَّ فــي عــضدي؟
زعــافَ صــدركَ فــي نبــضي قــد اقترنــا
فعــشْ فــديتكَ مــاكفي بمنبــسط
إلاّ ليــدرأ عنــكَ الحيــفَ والغبنــا

فهو ينادي أخاه متودداً إليه محركاً مشاعره عبر الاستفهام "أتذكر؟ "، هذا الاستفهام الذي يخرج إلى جعل هذا الأخ يستحضر الماضي؛ هذا الماضي القائم على الإخلاص والوفاء، وعدم الانقطاع على الرغم من الصعوبات التي تعترض طريق الإنسان لأنَّ هذه الصعوبات تتطلب الحفاظ على العهد، والاجتماع على المحن لا الافتراق، وتلبية نداء الواجب الوطني عندما يقتضي الأمر، والنيفي يعبّر عن هذا الموقف بشعريّة فذّة لأنَّ الكف التي صافحت الكف خالها في مصافحتها ماء طاهراً ينساب لكي يروي أرض الوطن من دمه إن انقطعت السبل، وتكالب الأعداء، والذي يظهر شعريته اعتراضه بين المفعولين بجملة شرطية (إن شحّ الندى)؛ هذه الجملة التي تشكك في انقطاع خيرات الوطن لأنَّ هذا الانقطاع سيكون لصالح الأعداء الطامعين ممّا يحتّم عليه، وعلى أخيه المحافظة على العهد المقطوع بالذود عن الوطن كي لايشحّ الندى، كي لاينقطع الخير.

وتبدو ثقافة النيفيّ قائمة على احترام الآخر، ومعاملته معاملة إنسانية قائمة على التسامح؛ هذا التسامح يستقيه شاعرنا من قوله تعالى: " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ "[٢٢]؛ هذا الاستقاء هو تناصّ دينيّ يستمدّه النيفيّ من طلب ربّ العزّة القائم على الصفح الجميل لأنه يلتزم تعاليم السماء، ويغدو إنسانياً إن أحسّ بتآمر الآخر عليه، فإنّه لايبيّت له الحقد والضغينة بل يصفح عنه؛ هذا الصفح يجعله مدافعاً عن أخيه، وإن أضمر له الشر مستمداً دفاعه من قوله تعالى: " لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ"[٢٣].

والنيفي يتعلّم من هذه الآية، ويسوقها في شعره عندما يقول:

فعِشْ فديتكَ ما كفّي بمنبسطٍ
إلاّ ليدرأ عنكَ الحيفَ والغبنا

ففي صدر البيت يبدو التناصّ الدينيّ باستقاء ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه لبناء نموذج الإنسان الجميل بفعله الذي يرخصُ روحه، ولا ينتقم ممّن أراد قتله لأنَّ ذلك القتل يفتديه الشاعر معلّماً الآخرين أن يعاملوا بعضهم معاملة حسنة بعيدة عن الأحقاد مغمورة بالحبّ الذي يعمر به الكون، وبذلك يغدو المسلم مسالماً لا إرهابيّاً كما صوّرته وسائل الإعلام الغربيّة إذ جعلته نموذجاً للقبح الإنسانيّ على حين أنّ النيفيّ قدّم المسلم مثالاً للجمال الإنسانيّ.

ولعلّ هذه الإنسانيّة الموجودة لدى النيفي تتلاقى مع نظرة الشاعر المهجري الإنساني إيليا أبي ماضي في قوله:

يا أخي لاتُمِلْ بوجهِكَ عنّي
ما أنا فحمةٌ ولا أنتَ فرقدْ
فلكٌ واحدٌ يظلّ كلينا
حارَ طرفي به، وطرفك أرمدْ[١٤]

ويعتدّ النيفيّ بنسبه وعراقة أصله؛ تلك العراقة المرتبطة بعروبته وإسلامه، وذلك النسب المتأصّل في مدينة منبج؛ تلك المدينة العريقة التي أنجبت البحتري ودوقلة وأبا ريشة وأبا فراس الحمداني، ويوسف عبيد، ومحمّد منلا غزيّل وغيرهم، إذ يقول في قصيدته "عناق"[١٥]:

منبجيٌّ المهدِ بادي القسمات
تدمريّ الوجدِ جمُّ الحسرات
يعربيٌّ الطبعِ موفورُ الأسى
أحمديٌّ النهجِ قدسيّ السمات

إنّه يعتدّ بنسبه عبر الثنائية المفتتحة للبيتين؛ لبداية كلّ شطر منهما بمفردة مقترنة بياء النسبة إذ تحمل هذه الياء تأكيد مصداقية النسب إذ قرن مفردة "منبجيّ" بها إذ تحمل هذه الياء تأكيد مصداقية النسب، وقد قرنها بالمهد؛ والمهد يوحي بمكان الولادة التي شكلت بنيته كما أنّه ينتسب إلى عراقة تدمر انتساباً تاريخياً، وطبعه طبع البدويّ العزيز، ونهجه الحياتي نهج خاتم المرسلين، وأخلاقه من أخلاق ذلك الرسول ﷺ.

وتبدو "منبج" ملازمة لنفسيّة شاعرنا النيفيّ في سرّائه وضرّائه، فهو يتذكر أيّامها الحلوة، ويشتاق إليها إن أُبعد عنها، فيقول في قصيدته "ذكراك"[١٦]:

أتُراهُ شيّعني الحنينُ فأبصرَتْ
عيناي نجماً في سمائك يدلجُ
ونسابَ طيفك ساطعاً يتوهّجُ
وانسابَ طيفك ساطعاً يتوهّجُ
صورٌ تقاذفها الخيال، وصبوة
حفرَتْ سواقيها بروحي منبجُ
عصف الحنينُ بمهجتي فوددْتُ لو
قلبي فويقَ ترابها يتدحرجُ

إنّه يتخيّل لحظات يكون فيها بعيداً عن منبج، ويتساءل عن كيفيّة عودته إليها مشخّصاً الحنين جاعلاً

منه إنساناً يشيّع الشاعر إلى مسقط رأسه؛ هذا التشييع يعني غيابه كنجم غاب في حلكة الظلام، وهو يتشوّق إلى مدينته، وينبض قلبه بالحنين كلّما أحسّ بابتعاده عنها متمنياً لو فرّ قلبه من ضلوعه متدحرجاً فوق ترابها الطاهر لأنّ هذا القلب لاينفصل عن الموطن الذي ولد فيه.

ويبحث النيفيّ عن الأصل متمسكاً بالهويّة والتاريخ منتسباً إلى عظماء أمّته، مفتخراً بأنّه ولد من أمّة أنجبت الأبطال الأقوياء كأبطال بدر، واليرموك إذ يقول في قصيدته "وجهي يبحث عن ظلّه"[١٧]:

لاتسلني متى وُلِدْتُ فإنّي
كامنٌ فيكَ هل نظرْتَ إليّا؟
يومَ أطلَلْتُ كحّلَ المجدُ عينيه
وأهدى إلى الوجود التّحيا
فكأنّ اليرموكَ تحضُن بدراً
وكأنّ الوليد ضمّ عليّا

فهو يخاطب المتلقي الذي يستفسر عن زمان ولادته محاوراً ذاته؛ هذا الحوار يدل على عمق جذره مفتخراً باللحظة التي خرج فيها إلى الحياة؛ تلك اللحظة التي كحّل فيها التاريخ عينيه برؤية النيفيّ وليداً إذ عمّ الفرح الذي جعله يخال اليرموك امرأة تحضن أختها بدراً مباركة حدث الولاة كما أنّ بطل اليرموك يعانق فارس بدر علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، إذ يبدو التناصّ باستحضار رموز التاريخ العربيّ الإسلاميّ لترى خلفها الصالح الذي سيسير على نهج أسلافه المؤمنين الصناديد.

والنيفيّ شاعرٌ يمتحُ من واقع مؤلم؛ هذا الواقع يأتي التنفس عنه عبر الإبداع الشعريّ؛ هذا الإبداع يجعل الشعر مباركاً قائله النيفي، معانقاً له إذ يقول في قصيدته "هكذا عَسْعَسَ الليل"[١٨]:

أجاذب الحزن محموم الفؤاد كما
تجاذب العين من تسهيدها الوسنا
فعانقتني قوافي الشعر حانية
كما يعانق طير في الربا فننا

فهو يلجأ إلى التصوير إذ يخال الحزن إنساناً يجاذبه الحديث؛ هذه المجاذبة تشبه مجاذبة العين الأرقة من شدة السهر للنوم، ولكن هيهات للنوم أن يَعرف طريقه إلى الشاعر لأنّ هذه اللحظات تفجّر طاقاته الإبداعيّة، ويغدو الشعر إنساناً يحسّ بالنيفيّ يواسيه، ويعانقه مثل عناق الطير لأغصان الشجر.

وتزداد ثقافة النيفي تألّقاً عندما يستحضر أبطال التاريخ العربي في القصيدة ذاتها حيث يقول[١٩]:

ياسعدُ دونكَ أرضُ الرافدين أفق
لافلَّ عزمكَ في خطب ولا وهنا
وياصلاحُ على حطّينها انتحبت
أنقاضُ مجدٍ، وحقّ تحته دُفنا

فهو ينادي سعد بن أبي وقّاص قائد القادسيّة، تلك المعركة التي انتصر فيها العرب على الفرس علّهُ ينقذ العراق الجريح، ويطهّر أرضه من المحتلين مسترجعاً عزيمة سعد، وقوّته في خوضِ غمار الحروب كما يستنجد بصلاح الدين قائد حطين التي حزنت على واقع العراق وفلسطين وكلّ مكان طالته يد العسف، علّهُ ينقذ أبناء اليوم، ويخلّصهم من الظلم، ويأتي تناصّه مع رموز التاريخ العربيّ مؤكّداً أهميّة هذه الرموز في شحذ همم الأبناء، وجعلهم يمتلكون إرادة في الدفاع عن وجودهم.

وفي موضع آخر يستحضر صلاح الدين، وقائد القادسية مؤكّداً تناصّه مع التاريخ في قصيدته "نشيد الصحارى"[٢٠] التي يقول فيها:

أمِنَ القدسِ أومأَتْ كفُّ طفلٍ
يتحدّى في كفّه سجيل
خيلُ حطّينَ واجمٌ ياصلاحَ الدينِ
في حلقه يغصُّ الصهيل
صحْتُ: ياسعدُ فاستفاقت عصورٌ
من سُباتٍ ولاحَ مجدٌ أثيل

فهو يتساءل عن أطفال الحجارة في فلسطين المحتلة، ويخال هؤلاء الأطفال كطيور الأبابيل التي أرسلها الله لتعاقب أبرهة الحبشي الذي أراد هدم الكعبة معتقداً أنّ هؤلاء الأطفال سيخلصون مهد السيد المسيح من ظلم الصهاينة الذين تضايقت لهم فرسان حطين إذ لم تعد خيولها تصهل ممّا حتّم على النيفيّ الاستغاثة بسعد بن أبي وقّاص؛ تلك الاستغاثة التي نبّهت الغافلين، وجعلتهم يصحون من سباتهم لكي يعيدوا مجد أجدادهم في القادسيّة وحطّين.

وعندما يرثي الشاعر "يوسف عبيد" يستحضر عظام التاريخ مصرّاً على تناصّه معهم في قصيدته "عاشق الشمس"[٢١] التي يقول فيها:

شهبُ اليقين على يديكَ تقاطرتْ
ألمحْتَ في لمعانها الأبطالا؟
ذا كعبُ ذا حسّانُ ذا ابنُ رواحة
يتوافدونَ إلى الخلود عجالا

ذا سـعدُ مخـذولُ الرجـاء أفجّـرت
غـصصُ النخيـل بنبـضه زلـزالا؟
أصـهيلُ خيلـكَ ياصـلاحَ الـدين أمْ
شـهقات جـرحٍ فـي الفجيعـة عَـالا؟
ماستـصرخ الأقـصى سـواكَ ومـا اشـتكى
إلا إليـكَ الجـورَ والإذلالا

إنّه يجعل من اليقين المعنويّ صورة حسيّة تشعّ بالنور الذي خاله مشعّاً من يدي صديقه الشاعر يوسف عبيد؛ هذا النور المشعّ وكأنّه عدسة آلة تصوير موجّهة إلى شاشة سينمائية إذ تبثّ العدسة بانوراما تاريخيّة لأبطال العَرب، فتعرض صورة لكعب بن زهير الذي امتدح الرسول ﷺ فخلع عليه بردته، ولحسّان بن ثابت المدافع عن العقيدة السمحة بلسانه، وعبدالله بن رواحة الذي صحب الرسول ﷺ في معاركه، وصورة لمعركة القادسية، وقائدها سعد بن أبي وقاص الذي هزم الفرس، وتضايق لواقع العراق الحالي، ومن بطل القادسيّة يتأمّل المشاهد ويسترق سمعه لصهيل خيل صلاح الدين الذي يختلط بآلام فلسطين، ولا يعود المشاهد قادراً على التمييز بين الخيل التي قدمت إلى حطين في الماضي، وشهقات الجراح النازفة في القرن العشرين بعد أن استبيحت حرية المسجد الأقصى الذي طهّره صلاح الدين سابقاً من رجس الصليبيين وهو الآن يرزخ تحت سيطرة الصهاينة الذين عاثوا فيه فساداً، ويتفجّر صوت "الأقصى" ليختلط بالأصوات السابقة طالباً النّجدة.

وينتقل النيفيّ من التناصّ الناتج عن استحضار رموز التاريخ إلى التناصّ الأدبيّ القائم على استحضار الشاعر الصوفي الحلاّج[٢٢] ذلك الشاعر المفكر الذي قُتل نتيجة فكره منددّاً بقاتليه قائلاً في قصيدته "العائد عبدالله"[٢٣]:

قد حانَ عزاؤكَ ياحلاّجُ
فناد الله
وفُكَّ إسارَ القلب من الأصفادْ
اليومُ تلاقى حولَ رفاتك كلُ أساطينَ النسّاك
بالأمس هتفتَ تريدُ اللهَ
بلا ميعادْ
وكانَ السيفُ يراقبُ صوتكَ بالمرصادْ
جدّدْ أحزانكَ ياحلاّجْ
قد غابَ القحط
وجاء النفط
وسال لعابُ الذّئبُ طويلاً
فوق الزّادْ

فالنيفي يمتزج بالحلاّج لأنّ واقع أمّته العربية المزري يُشبه الواقع الذي عاشه الحلاّج، وحاول إبداء آراء نحوه، مشكلاً عالماً خاصاً به، كما يستحضر مأساته واللحظات التي قُتل فيها الحلاّج نتيجة مواقفه، تلك المواقف التي لم تعجب مَنْ حوله.

والنيفي يقيم له مجلس عزاء، ويرى فيه المخلّص للإنسان المعنى المُكبّل فكرياً الذي رُبّيت على يديه أجيال تلو أجيال، ولن تنسى هذه الأجيال الحلاّج مثال الإنسان المفكر والعالم الجليل، والشاعر المرهف، فهو مثال للصامدين على قول كلمة الحق.

وتتبدّى ثقافة الشاعر في محاورته لأبي الطيّب المتنبّي؛ هذه المحاورة قائمة على التناصّ ببنائه الفكريّ واللغويّ في قصيدته "إطلالة العيد"[٢٤] التي يقول فيها:

وَقْـدٌ بـصدركَ أم لحـنٌ وتغريـدُ؟
سـرّان فـي الـروح أم جـرحٌ وتنهيـدُ؟
ياشـاعرَ الـسيف والأقـلام راعفـةً
سـالا علـى الرمـل فالـدنيا أناشـيدُ
سـيّان ياصـاحبي فـالروح إن طفحـتْ
بـالنور، راقَ لهـا فـي الوجد تجديـدُ

فهو يحاكي المتنبّي في قصيدته التي هجا فيها كافور الإخشيديّ معارضاً تلك القصيدة بوزنها وقافيتها من ناحية الشكل، ومضمونها من ناحية المعنى؛ تلك القصيدة التي افتتحها المتنبي بقوله:

عيـدٌ بأيّـة حـال عـدْتَ ياعيـدُ؟
بمـا مـضى أم لأمـرٍ فيـك تجديـدُ[٢٥]

فالمتنبي يصرّح بقدوم العيد على حين أنّ النيفيّ يلمّح بأجوائه موجّهاً خطابه للمتنبّي عبر كاف الخطاب المتصلة بمفردة "بصدرك"، وهو يقرّ بشاعريته وفروسيّته عندما يقول في القصيدة ذاتها:

ياشـاعرَ الخيـل وقيـتَ العـذابَ فهـلْ
لفـرط حزنـكَ أنـتَ اليـوم محـسودُ؟

فهو يدعو للمتنبّي كي يقيه العذاب لأنّ المتنبّي الشاعر الذي قتله شعره، والنيفيّ يستحضر ذلك البيت الذي قاله المتنبي في ميميّته المضمومة:

فالخيـلُ والليـلُ، والبيـداء تعرفنـي
والـسيف، والـرمحُ، والقرطـاسُ والقلـمُ[٢٦]

ولعلّ النيفيَ حاور المتنبّي لأنه وجد فيه شاعر العنفوانِ والكبرياء العربيِ، في عصر ادلهمّتْ فيه الأحداث، وكثرت الخطوبْ.

وإذا كان النيفي قد حاور المتنبيَ في داليته المضمومة فإنّه لم ينس الشنفرى الأزدي شاعر الصعاليك الأوّل الذي عرف بلاميته المشهورة "لامية العرب" حيث يقول النيفي في قصيدته "فضاء للروح"(٢٧):

ياروحُ ماسجدَ الجبينُ على الدمى
أبداً ولم يلجِ الخنوعُ قناتي
في الأرض قيلَ عنِ الأذى متعزّلٌ
لمَنْ اتقى في العمرِ شرَّ طغاة

فالنيفيَ يعتدّ بعقيدته؛ بعقيدة التوحيد، ويخلص لها بكبرياء العربي؛ هذا الكبرياء الذي جعله يستحضر كبرياء الشنفرى الذي ثار على المجتمع القبلي، وانطلق إلى الصحراء باحثاً عن الصفاء والنقاء والطهارة؛ هذا البحث من أجل أن يعيش الإنسان بكرامة رافضاً تحكّم الآخرين به، والنيفي يستقي هذه النظرة من لامية العرب في قول الشنفرى:

وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى
وفيها لمَنْ خافَ القِلى متعزَّلُ(٢٨)

وفي هذا الاستقاء تناصَ أدبيَ جزئيَ مستمدّ من بيت الشنفرى الذي وظفه النيفيَ للتعبير عن الرفض للطغيان الذي تعدّدت أشكاله في بلدان العالم.

ولايقتصر التناصَ الأدبيَ عند النيفيَ على استحضار الشعراء الفرسان من أبناء العروبة إذ يتعدّاه مازجاً بين تناصَين دينيَ وأدبيَ ،فيستحضر الرمزَ الدينيَ بلال الحبشيَ بصوته الدال على صمود الحق؛ ذلك الصوت الصادح بالنشيد الجهاديَ الثائر في قصيدته "لموتك يعشب الكفن"(٢٩) حيث يقول:

وما ظلَّ في الكون إلا بلال ينادي:
(أخي داهم الظالمون البلاد
فحقّ الفداء وحقّ الجهادُ)

فهو يستحضر مؤذّن الرسول صلى الله عليه وسلم "بلال" المؤذّن الصامد الصابر الصادق في الدفاع عن المبدأ؛ وهذا الاستحضار هو تناصّ دينيّ يمزجه بتناصّ أدبيّ عندما ينطق "بلال" بنداء للشاعر علي محمود طه؛ هذا النداء غدا أنشودة على مرّ الأزمان إذ يقول فيه:

أخي جاوزَ الظالمونَ المدى
فحقّ الجهادُ وحقّ الفدا

فالجميل في هذا السياق يرتبط بقوّة الشخصيّة التي تدافع عن الحق، وترخص الروح ليحيا الآخرون بعزّة وكرامة؛ هذه الشخصيّة دينيّة، أمّا التناصّ الأدبيّ فقد جاء بصورة كليّة لبيت الشاعر علي محمود طه، ولكنّ النيفيّ عمد إلى التقديم والتأخير جاعلاً منه آذاناً يؤذّنه بلال الحبشيّ.

وفي سياق آخر يأتي التناصّ الأدبيّ عند النيفيّ مع عمر أبي ريشة حيث يقول النيفيّ في قصيدته "هكذا عسعس الليل"(٣٠):

أخي أتعذرُ إذْ أضرمتُ في شفتي
كأسَ الشقاء؟ فأشقى الطامحين أنا
الحامليـنَ شموسَ الفجر راعفة
بينَ الضلوعِ، " وما في الأفقِ ومضُ سنا"

إذ يأتي التناص في البيت الثاني مع أبي ريشة في قصيدته " عودي" التي نظمت على البحر البسيط، وقد نظم النيفيّ قصيدته على البحر نفسه، واتّخذ القافية التي اتخذها أبو ريشة في قوله(٣١):

وسرتُ في وحشتي، والليل ملتحفٌ
بالزمهرير، وما في الأفق ومض سنا

فالليل عند أبي ريشة لا أنيس فيه، وهو مظلم بامتداده، بارد في جوّه على حين أنّ النيفيّ يأتي بالصور الدالة على التفاؤل الثوريّ المنبثق عن أناس آمنوا بتحرّرهم، وامتلكوا إرادة صلبة، وطموحاً لاحدود له، وإذ بهم يصطدمون بالواقع المؤلم، وانكساراته التي تجعل إيمانهم، وإرادتهم، وطموحاتهم تبقى كامنة في صدورهم مكبوتة لم تخرج إلى حيّز الوجود الذي بقي مظلماً حزيناً، والصورة في هذا السياق توحي بالسواد الناتج عمّا بقي في الصدور، وظهر في الجو.

ولا ينسى النيفي أبا فراس الحمدانيّ الذي دافع عن ثغور الدولة الإسلامية ضد الروم، وكان أميراً لمنبج إذ يقول في قصيدته "قالت لك الدنيا "(٣٢):

هـزّي جذوعَ العمر، منبجُ، هل أرى
سيفاً تقلّدَهُ فتى حمدان؟

إنّه يلجأ إلى اقتباس اللفظ القرآنيّ؛ هذا الاقتباس هو تناصّ دينيّ مع قوله تعالي مخاطباً مريم عليها السلام " وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا "(٣٣)، وإذا كان ربّ العزّة قد خاطب مريم عليها

السلامِ فإنَّ النيفيَ يخاطب مدينته منبج حتّى تنجب شبيهاً لأبي فراس في الفروسيّة والشاعريّة، والدفاع عن الأهلِ والوطن.

ويتوقّف النيفيَ عند مدينة العجائب "بابل" المشهورة بحدائقها المعلّقة التي اتّجهت نحوها أعين الطامعين في الماضي، وهي الآن تعاني من وطأة الاحتلال الغربي في قصيدته "مساءات بابل"(٣٤) إذ يقول:

تباركُ كلُّ النيازك أعراسَ بابلْ
فيطفحُ في أفقها القرمزيّ
حكاية طفل
إذا جاعَ، يرضعُ وهجَ القنابل
وعن عابد
هزّ سعفَ النخيل
يسائل عن زادِه في الصباح
فخاطبه النخل: قاتل.. وقاتلْ

فهو يشير إلى عراقة "بابل"؛ هذه الإشارة تناصّ مع رموز التاريخ التي تجعله يخال مباركة نيازك السماء لأعراسها التي أنجبت أبطالاً حرموا من قوت عيشهم، هؤلاء الأطفال أشدّاء يقتاتون شعاع نيرانِ الأعداء، كما أنّ العابد الباحث عن رطب النخيل علمتهُ النخيل المقاومة والقتال حتى يحقّق كرامته، ويحصل على مايريد في حياته.

وتتكشف أصالة ثقافة النيفي ببعدها المعرفيّ والحضاريّ أثناء رثائه للشاعر "يوسف عبيد" في قصيدته "عاشق الشمس"(٣٥) عندما يستحضر شاعر الإسلام الهنديّ "محمّد إقبال"؛ هذا الاستحضار تناصّ أدبيّ يقف فيه النيفيَ مخاطباً المرثيّ قائلاً:

نلتَ الرضا لمّا طويتَ على اللظى
كفّاً فسابقَ فعلك الأقوالا
وهتفْتَ للحقّ المبين فعانقَتْ
نجواكَ في عليائها "إقبالا"

فهو يعترف بمزايا الشاعر "يوسف عبيد" الحميدة، وأفعاله الخيّرة، ودفاعه عن الإسلام؛ هذا الدفاع الذي يوازي دفاع الشاعر "محمّد إقبال" عن الدين الحنيف، وبذلك يرقى النيفيَ برثاء ممدوحه؛ يرقى بالممدوح إلى مرتبة الشاعر إقبال.

وفي قصيدته "بوح"(٣٦) ينهج النيفي نهج الحقّ في الحياة مقدّماً بوحه هديّة إلى أمّه عبر تناصّ دينيّ مع آي الذكر الحكيم قائلاً:

أمّاهُ ماغربتْ شموسُ أصيلةٍ
إلا لتشرق من ثغورِ صباحِ
فالحقُّ دأبي، والفضيلةُ موئلي
والفكرُ والصبرُ الجميلُ سلاحي

فهو يلتمس من أمّه مؤكّداً لها النور الذي يعقب حلكةَ الظلام؛ هذا النور الذي جعله يسعى لإرضاء الحقّ، والحقّ هو الله، وهذا المعنى يستمدّه من قوله تعالى: " وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا"(٣٧) كما أنّ النيفيَ يتسلح بالفكر ويصبر على الشدائد مستوحياً صبره من قوله عزّ من قائل: "وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ"(٣٨) إذ يقوم منهجه الحياتي على الفضيلة والحقّ اللذين يسعى إلى إقرارهما متزوّداً بثقافة واسعة، متجلداً بالصبر الجميل لمواجهة محن الأيّام.

وتبدو قوة إيمان النيفي؛هذه القوّة تؤكد تناصّه المعنويّ مع عقيدته، وهضمه للفكر الإسلاميّ في قصيدته "فضاء للروح(٣٩) " التي يقول فيها:

وإذا وقفتُ على الهجيرِ مصلّياً
روّى شحوبَ الأرضِ عِطرُ صَلاتي
ينداحُ صوتُ الحقّ في خلدي كما
ينداحُ موجُ النورِ في الظلمات

فهو يبيّن لنا التزامه بدينه، وتأديته للفرائض مهما قسا عليه الواقع لأنّ الصلاة تبدّد الهموم، وتجعل قلب الإنسان مطمئناً، وهي زكية عطرة تعطّرُ الأرض التي سجد عليها جبين المصلي الذي ينبض قلبه بذكر الحق؛ هذا الذكر ماهو إلاّ نور يبدّد ظلام الليل، وظلم الإنسان للإنسان.

وفي قصيدته "قالَتْ لكَ الدّنيا"(٤٠) تتوالى الصور النفسيّة المعبّرة عن عمق تواصله مع عقيدته، وتمثّله لما أنزله ربّه على خاتم المرسلين ﷺ إذ يقول:

أنا في شغافِ الكون نفحٌ عاطرٌ
قد باركَتْهُ لطائفُ الرحمن
أشرقْتُ بالتوحيد يلهجُ خافقي
فيسيلُ ظلي فوق كل مكانِ
منْ كوثرِ التوحيد كأسي ثرّةٌ
شعَتْ، ففاضَ عبيرُها الربّاني
ولقد سقاني الله عَذْبَ نميره
ويداك غيرَ المرّ ماسقتاني
أنا ياحياةُ على ترابك مسلمٌ
ينداحُ صوتُ الحق في شرياني
أهواك سنبلةً ترفّ لجائعٍ
وندىً يسيلُ على فمِ الظمآنِ

وعقيدةً سمحاءَ يعبر عدلُها
ظلمَ العصورِ، وشرعةَ الأوثانِ
ربّاهُ ماقصدتْ سواكَ قصائدي
وبغيرِ ذكركَ مابريْتُ لساني

فالنّيفي يعتدّ بوجوده في الدنيا التي رآها قلباً يحركه النيفي بعطره الفوّاح المبارك برحمة الله؛ تلك الرحمة التي استقاها شاعرنا من قوله تعالى: "الرّحمن علّم القرآن خلق الإنسان، علّمه البيان"[٤١] إذ تعلّم بيان العربيّة وصفاءها، فغدا مشرقاً ناطقاً بالذكر حيثما توجّه، وأينما حلّ، يحتسي خمرة إلهيّة من كوثر ربّه مستمداً هذا المعنى "إنّا أعطيناك الكوثر"[٤٢]؛ ذلك النهر العذب السلسبيل الموجود في جنة الخلود؛ هذا الاحتساء يعني تواصله مع ربّه، وطهره ونقاءه؛ هذا الطّهر نجده في قوله تعالى: " عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا "[٤٣]؛ هذا الشّراب الطّهور غذّى نفسه، وسرى في دمه، ونبض في قلبه لذا كان عليه أن يعتزّ بوجوده مسلماً ينافح عن عقيدته، ويحبّ الدنيا التي تعطي البسطاء المحتاجين محسّاً بآلام الآخرين منادياً بالعدالة والتحرّر كي يحقّق الإنسان كرامته، ويتخلص من ظلم الطاغيين، ناذراً شعره لخدمة عقيدته، سائراً في ركب الشعر الهادف للتغيير المناصر للحقّ المفعم بالإيمان العطر النضر المشرق بنور الله النابض بذكره، المرتشف من عذب كوثره.

والنيفيّ من الشّعراء المؤمنين الذّاكرين ربّهم، المرتلين ذكره، الطالبين مغفرته ورحمته، لأنّه اللطيف الغفور الكريم، إذ يقول في قصيدته "إطلالة العيد"[٤٤]:

الضّارعونَ بآياتِ الهدى سحراً
إلى العليِّ، وآيُ الفجرِ مشهودُ
ربّاهُ لطفكَ حسبي منكَ مغفرةً
منكَ الحنانُ، ومنكَ اللطفُ والجودُ

إنّه في ركب المتبتلين إلى ربّهم، القارئين للقرآن ساعة السحر؛ هذه القراءة نجدها في تحفيز ربّ العزّة لهم" أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا "[٤٥]؛ هذا التحفيز يدفع المؤمنين لامتثال أوامر ربّهم كما امتثلها النيفيّ مضمّناً شعره المعنى القرآنيّ؛ هذا المعنى جاء عفو الخاطر بعيداً عن التكلّف لأنّه من طبيعة الشاعر متصل بصدق أحاسيسه ومشاعره لأنّه يعبّر عن ذاته، وفكره المستمدّ من كتاب الله وشريعته السمحة.

ويتضرّع النيفي إلى خالقه شاكياً معاناته إلى ربّه؛ تلك المعاناة التي بدّدها إيمانه في قصيدته "بوح"[٤٦] التي يقول فيها:

ربّاه قد حمّ الرجاء بخاطري
ومصيبتي عزّتْ على الإفصاح
قد أظلمتْ دنياي ليس يضيئها
إلاّ لطائفُ نورك الوضّاح
هل يستوي مَنْ راحَ ينتظرُ الرّدى
ذلاً، وحاملُ روحه في الرّاح؟
فسقيتُ شحّ النفس من ألق المنى
كأساً، ففاض النّور في أقداحي

فهو يلجأ إلى النداء "ربّاه" وقد حذف أداته لضيق المقام من جهة ولقرب المنادى من جهة أخرى، وينتقل من النداء الذي يحمل في طيّاته التضرّع والانكسار للخالق إلى بيان حاله عبر أسلوب التوكيد (قد حمّ الرجاء)؛ هذا الأسلوب التصويري المفصح عن صورة معنوية تجعلنا نتخيل إصابة رجائه بالحمى، كما أنّ مصيبته أصيبت بالعيّ لأنّ الدنيا غدت مظلمة، والذي يبدد ظلامها هو نور الخالق الموجود في قوله تعالى: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[٤٧]. وقوله عزّ من قائل: "وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ"[٤٨]؛ هذا النور يجعل النيفيّ محسّاً بالأمان؛ هذا الأمان يعني إيمانه الصادق لأنّه يستقي من القرآن ألفاظه ومعانيه ويوظفها في شعره؛ هذا التوظيف ليس إقحاماً على الشعر بل إنما جاء من طبيعة التكوين الشعريّ عند النيفيّ؛ هذا التكوين قلما نجده عن شعراء يعاصرونه، فهو يستقي من قوله تعالى: "أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ "[٤٩]؛ يستقي أسلوب الاستفهام ليعبّر عن حالة منطقين من البشر، أحدهما يريد الموت على وسائد الذل والمهانة ويسلّم بكل ماحوله، والآخر يأبى أن يموت ميتة الأذلاء الصاغرين لأنّه يتمنّى الموت في ساحة العزّة والكرامة؛ هذا الموت يجعلني أستحضر ماقاله الشاعر عبدالرحيم محمود[٥٠]:

سأحملُ روحي على راحتي
وألقي بها في مهاوي الردى
فإمّا حياةٌ تسرُّ الصديق
وإمّا مماتٌ يغيظُ العدا

والنيفي يشير إلى من يحمل دمه على كفّه؛ هذه الإشارة توحي بكرمه وسخائه على الرغم من شحّ الصحراء.

ويمضي النيفي موضّحاً عمق إيمانه لأنّه إيمان قائم على الكرم، على بذل النفس؛ هذا البذل نابع من فيض النور الرباني الذي ملأ نفسه فهو ممتثل لقوله تعالى: "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "(٥١).

ويدعو شاعرنا ربّه راجياً حنانه، ونشر دفق الإيمان في قلبه عندما تنتابه الآلام، ويشعر بقساوة المعاناة في قصيدته "ابتهال الشموع"(٥٢) التي قال فيها:

ربّاهُ هبْ لي من حنانكَ نعمةً
وانشرْ شذا الإيمانِ في دفقاتي
واربطْ على قلبي إذا عصفَ الدّجى
واكتظَّ جسمي الغضّ بالطّعنات

هذا الدعاء يستقيه النيفي من قوله تعالى: " رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا من لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ "(٥٣)، وهو يعي عطاء ربّه، ويثق بذلك العطاء، كما يطالبه بأن يربط على قلبه أيّام الشدائد والمحن كي يتجاوزها صابراً، هذا المعنى نجده في قوله تعالى: "وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربّنا ربّ السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً "(٥٤).

ولعلّ استقاء النيفي من هاتين الآيتين ماهو إلاّ دليل على صبره الصبرِ الذي صبرَهُ أيوب عليه السلام، والصبر الذي تحلّى به يعقوب على فراق يوسُفَ عليهما السلام، والأمن الذي زرعه الخالق في أفئدة أصحاب الكهف، هذا الأمن يريده شاعرنا إذ أحاطت به الخطوب، وسكن غياهب الكهوف.

ويصرّ النيفي على تمسّكه بالصبر عندما يخاطب المتنبّي في قصيدته "إطلالة العيد"(٥٥) إذ يقول له:

واصبرْ فديتك علَ الفجر موعدنا
فالصبرُ في النفسِ يومَ الروعِ محمودُ

فهو يطالب المتنبيَ بالصبر على الظلم والقهر لأنه متفائل ببزوغ فجر الخلاص، ولأنَّ الصبر مفتاح للفرج، وامتلاك للشخصيّة المؤمنة؛ هذا الصبر مستمد من قوله تعالى: "اصبروا وصابروا"(٥٦)، وقوله: "وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"(٥٧)، وقوله: " إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ"(٥٨).

فالصبرُ الذي رغب فيه الله المؤمنين يمتثل له النيفي قولاً وفعلاً، ويطالب المتنبّي أن يمتثله لأنّ الصبر عنوان للإيمان الحقيقيّ.

وفي سياق آخر يسوق النيفي الألفاظ القرآنية المأخوذة من سورة يوسف حيث يقول(٥٩):

خابَ فألُ الطّغاة قد حصحصَ الحقُ
فصبرٌ على الجراح جميل

فهو يشير إلى انتصار الحقّ في هذا الزمن كما انتصر يوسف عندما اعترفت امرأة العزيز بمراودتها له حيث ورد ذكرها في قوله تعالى على لسانها: "الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين"(٦٠) وعندما كحّل يعقوب عينيه برؤية يوسف عليهما السلام بعد صبر جميل صبره، ونور بصره فقده، وقد تحققت له أمنيته برؤية يوسف.

ويتكشّف التناصّ الدينيّ الدال على إشارة ثقافيّة عميقة وجميلة عند النيفيّ في قصيدته " سيّد الألم الدفين"(٦١) التي يقول فيها:

ما بين صلبي والترائبِ أبحرٌ
دفقتْ بأحضان الوجود جواهرا

هذا التناصّ الدينيّ مستمدّ من قول ربّ العزّة:"خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصُلب والترائب "(٦٢) إذ يكسب النيفيُّ الشعر صفة الخلق لأنّ الشعر ابتكار ناتج عن مخاض ولادة في النفس جاعلاً منه دررا غالية الثمن منطلقاً من ثقته بالكلمة الهادفة التي يقدّمها الشعر؛ تلك الكلمة المؤثّرة التي تحرّك المتلقي، وتفاعله معها لما فيها من أصالة وبلاغة وبيان.

ويبدو التناصّ الدينيّ قويّاً في قصيدته " عناق"(٦٣) إذ يقول فيها:

عانقي، ياروحُ، أطياف المنى
واسبحي تيهاً بأمواج السنا
واعبري من زفرة الجرح إذا
عسعسَ الحزنُ بآفاق الدنا

إذ يفتتح قصيدته ببيت قائم على التوازن الجميل بين صيغتي الأمر " عانقي، اسحبي "؛ هذا التوازن ناتج عن العطف بالواو محدداً مفردات مستمدّة من الذكر الحكيم لأنّ الروح مأخوذة من روح الله؛ هذه الروح يطالبها النيفيّ أن تضمّ الأماني التي يحلم بها كما يطالبها بأن تسبح في بحر الأنوار الربانيّة؛ هذه الأنوار يعيها شاعرنا ملازمة لربّ العزّة؛ هذه الملازمة تدل على الجميل الصافي التقي النقيّ الذي يعبر من واقع مؤلم عندما يشتدّ هذا الواقع متناصّاً مع المعنى القرآني الذي يوضّحه قوله تعالى: " والليل إذا عسعس "[٦٤] إذ يغدو الحزن عند النيفيّ بسواده وعمقه مشبهاً ليلاً مظلماً؛ هذا الحزن ممتدّ بظلامه على الآفاق التي تمثّل ومضة أمل عند الإنسان ممّا يدلّ على خبوّ تلك الومضة؛ والصورة في هذا السياق لونيّة سوداء؛ وسوادها دال على القهر والظلم والجور الذي يعاني منه الإنسان على سطح البسيطة.

وعندما يرثي النيفيّ ابن منبج الشاعر "يوسف عبيد" في قصيدته "عاشق الشمس "[٦٥] تتجلى ثقافته الدينيّة دالّة على التناصّ الدينيّ مع القرآن في قوله:

آنستَ ناراً أم لمحتَ هلالا؟
يا مبصِراً خلفَ الجمالِ جمالا
إنّي وحقِ من استوى في عرشه
وبحقِ مَنْ قدّرَ الآجالا
وعجلتُ، ياربّي، إليكَ ومهجتي
عطشى تَرومُ السلسلَ الهطّالا
ضاقتْ فِجاجُ الأرض، وهي فسيحةٌ
فرجوتُ أحضانَ الشموسِ مجالا

ويبدو التناصّ الدينيّ جلياً في كلّ بيت قرضه النيفيّ، ويأتي دالاً على البعد المعرفيّ والجماليّ لشعره الذاخر بالثقافة الأصيلة إذ يستقي من قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: "إنّي آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس، أو أجد على النار هدى"[٦٦]؛ هذا التناصّ فيه تفاؤل قويّ ورغبة بالخلاص من الظلم، وترسيخ لمبدأ الجميل ذي النموذج المثاليّ.

ويمضي النيفيّ من تفاؤل بالخلاص من الظلم إلى القسم بالذات الإلهيّة؛ هذا القسم استقاه من مكانة الله في السماوات العلا في قوله تعالى: "الرحمن على العرش استوى" [٦٧]، كما يستحضر قصّة موسى حينما دعا ربّه إذ قال تعالى على لسانه: "وعجلت إليك ربّ لترضى" [٦٨] إذ يدعو النيفيّ ربّه كما دعاه موسى عليه السلام لأنّ روحه ظمأى تطلب الارتواء من فيض الرحمن لأنّ الدعاء شفاء للنفس، وريّ لعطشها.

كما يشير النيفيّ إلى الصحابة الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد، وأشار إليهم الخالق في قوله: "وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنّوا انّ لا ملجأ من الله إلا إليه ثمّ تاب عليهم ليتوبوا إنّ الله هو التوّاب الرحيم "[٦٩] فهو يسرد قصّة أولئك الصحابة ويسقطها بأسلوب مغاير على الواقع لأنّه يرثي من أحبّ؛ هذا الرثاء يجعل من خلاله الشاعر يوسف عبيد مرتقياً إلى مرتبة سامية عندما تشتدّ الأزمات إذ يكون اللجوء إلى جوار الرفيق الأعلى أكرم الأكرمين.

وفي قصيدته "ضياع"[٧٠] يظهر تناصّه الدينيّ مع سورة الملك في قوله:

أشهابٌ أم صخرةٌ من ظلام؟
(فارجع الطرف هل ترى من فطور؟)

فالنيفيّ يستقي الشطر الثاني من قوله تعالى: "الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور؟"[٧١] ؛هذا الاستقاء تصرّف به الشاعر إذ أبدل كلمة البصر الموجودة في الآية الكريمة بمفردة "الطرف"، وقد افتتح بيته بالاستفهام الدال على التصوّر إذ لايدري النيفيّ ما يحصل في الواقع ويأمر نفسه محاوراً الآخر كالحوار الوارد في الآية عله يدرك حقيقة الأمر المرتبط بالواقع.

ويستمدّ النيفيّ التناصّ الدينيّ من الذكر الكريم في قصيدته "قسم لذي حجر"[٧٢] فيقول:

هل في دمي المهدور
"قسم لذي حجر؟"

هذا التساؤل المرتبط بحالة إنسان أهدر دمه فيه تناصّ مع قوله تعالى "هل في ذلك قسم لذي حجر؟"[٧٣]

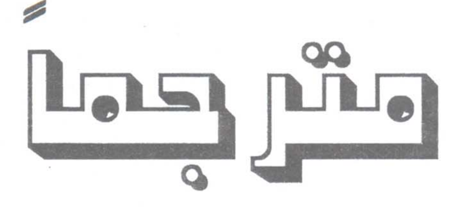
وهكذا نرى أنّ الشاعر حسن النيفي من الشعراء المثقفين المتعمّقين في القراءة الممتثلين أصالة التراث المتشرّبين للمبادئ الإسلاميّة الصحيحة؛ تلك المبادئ التي امتثلها شاعرنا قولاً وفعلاً متّخذاً الصبر شعاراً له، مقتدياً بنماذج امتثلت الصبر، كصبر يعقوب على فراق يوسف، وصبر يوسف على أذى إخوته وصبر أيوب على بلواه، كما أنّه استحضر فرسان الشعر العربي كالشنفرى الأزدي الجاهليّ، والمتنبيّ العباسي، والحلاّج، وكعب بن زهير، وحسّان بن ثابت الأنصاريّ، ولم ينسَ أبطال العرب الخالدين كخالد بن الوليد، وعبدالله بن رواحة، وصلاح الدين، وسعد بن أبي وقّاص، كما استفاد من آي الذكر الحكيم في بنائه

الشعري بشقيه اللفظي المعنويّ؛ كلّ ذلك يأتي للدلالة على أنّ النيفي شاعر من شعراء الطبقة الأولى في القرن العشرين لأنّه حاكى كبار شعراء العربيّة، وارتقى إلى مرتبتهم في الفنّ الشعري ممتلكاً حسّاً فنيّاً مميّزاً، وثقافة عربيّة أصيلة لاتشوبها شائبةٌ، وما أحوجنا إلى شعراء يرتقون إلى المنزلة التي تربّع عليها الشاعر حسن النيفيّ ابن منبج البارّ !.

هوامش البحث

(١) (مرافئ الروح) حسن النيفي- ص٧٧- دار اليمان- حلب- منبج- ٢٠١٠م- ط١.
(٢) (مرافئ الروح) ص ٨٣ و٨٤.
(٣) (رماد السنين) حسن النيفي- ص٢٢- دار الوعي العربي- حلب- ٢٠٠٤- ط١.
(٤) (رماد السنين) ص٤٨.
(٥) (الأخطل الصغير شاعر الألم والمجد والعشق) هاني الخير- ص١٥٨- دار مؤسسة رسلان- دمشق ٢٠١٠- ط١.
(٦) (ديوان أبي فراس الحمداني) د. سامي الدهان- حـ٣ ص ٣٢٩- المطبعة الكاثوليكية- بيروت ١٩٤٥- ط١.
(٧) (رماد السنين) ص٥٤.
(٨) (ديوان بدوي الجبل) ص٥٤٤- مؤسسة النشر الإسلامي- إيران- قم ٢٠٠٠- ط٢.
(٩) (مرافئ الروح) ص٥٩.
(١٠) سورة الحجرات، آية ١٣.
(١١) (رماد السنين) ص٢٠ و٢١.
(١٢) سورة الحجر، آية ٨٥.
(١٣) سورة المائدة، آية ٢٨.
(١٤) (معجم البابطين) مجلد٤- ص٧٦٣- إيليا أبو ماضي (١٨٨٩- ١٩٥٧م) مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري- الكويت ٢٠٠٨- ط١.
(١٥) (رماد السنين) ص١٥.
(١٦) (مرافئ الروح) ص٣٤ و٣٥.
(١٧) نفسه ص٩٧ و٩٨.
(١٨) (رماد السنين) ص١٩.
(١٩) (رماد السنين) ص٢٢.
(٢٠) (مرافئ الروح) ص٥٧ و٥٨ و٥٩.
(٢١) نفسه ص٦٤ و٦٥.
(٢٢) (كتاب أخبار الحلاّج) جمعه: ل. ماسينون وب. كراوس ص ١ و٢ و٣- مطبعة القلم- باريس ١٩٣٦.
(٢٣) (رماد السنين) ص١١٩.
(٢٤) نفسه ص٢٦ و٢٨ و٢٩.
(٢٥) (شرح ديوان المتنبي) شرح: عبدالله البرقوقي- حـ٢ ص١٦٧- مطبعة الاستقامة- القاهرة- ١٩٣٨ ط٢.
(٢٦) (شرح ديوان المتنبي) حـ٤ ص١١١.
(٢٧) (رماد السنين) ص ٥١ و٥٢.
(٢٨) (أعجبُ العجب في شرح لاميّة العرب) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشري- ص١٨- دار الوراقة- ١٣٩٢هـ- ط١.
(٢٩) (مرافئ الروح)ص١١٤.
(٣٠) (رماد السنين) ص٢٠
(٣١) (ديوان عمر أبي ريشة) مج ١ ص٢٠٣- دار العودة - بيروت ١٩٧١م - ط١
(٣٢) (مرافئ الروح) ص٧٥.
(٣٣) سورة مريم، الآية ٢٥.
(٣٤) (رماد السنين) ص١٢٢.
(٣٥) (مرافئ الروح) ص٦٦.
(٣٦) (رماد السنين) ص٣٩.
(٣٧) سورة الإسراء، الآية ٨١.
(٣٨) سورة يوسف، الآية ١٨.
(٣٩) (رماد السنين) ص٥٣.
(٤٠) (مرافئ الروح) ص٧٤ حتى ٧٦.
(٤١) سورة الرحمن آية ١ و ٢ و٣ و٤.
(٤٢) سورة الكوثر آية ١.
(٤٣) سورة الإنسان آية ٢١.
(٤٤) (رماد السنين) ص٢٧.
(٤٥) الإسراء آية ٧٨.
(٤٦) (رماد السنين) ص٥٤.
(٤٧) سورة النور آية ٣٥.
(٤٨) سورة الزمر آية ٦٩.
(٤٩) سورة الزمر آية ٩ .
(٥٠) (معجم البابطين) مجلد١١- ص١٣ و١٤- (١٩١٣- ١٩٤٨م) وُلد في قرية عنبتا (قضاء طولكرم- فلسطين)، واستشهد في قرية الشجرة من أعمال طبريّة (شرقي فلسطين) في معركة يدافع فيها عن وطنه.
(٥١) سورة الحشر آية ٩ .
(٥٢) (رماد السنين) ص٣٢.
(٥٣) سورة آل عمران آية ٨ .
(٥٤) سورة الكهف آية ١٤.
(٥٥) (مرافئ الروح) ص ٦١.
(٥٦) سورة آل عمران آية ٢٠٠.
(٥٧) سورة الأنفال آية ٤٦.
(٥٨) سورة الزمر آية ١٠.
(٥٩) (مرافئ الروح) ص٦٠.
(٦٠) سورة يوسف آية ٥١.
(٦١) (مرافئ الروح)ص٤٩.
(٦٢) سورة الطارق آية ٦-٧.
(٦٣) (رماد السنين) ص١٤.
(٦٤) سورة التكوير آية١٧.
(٦٥) (مرافئ الروح) ص٦١-٦٢-٦٣.
(٦٦) سورة طه آية ١٠.
(٦٧) سورة طه آية٣.
(٦٨) سورة طه آية ٨٤.
(٦٩) سورة التوبة آية ١٨.
(٧٠) (مرافئ الروح) ص١٣٣.
(٧١) سورة الملك آية ٣.
(٧٢) (مرافئ الروح) ص٣٠.
(٧٣) سورة الملك آية ٥.

د. عبد الرحمن دركزللي



من روائع القصص العالمية القصيرة

بقلم:
حسن بيضة

المترجم :

- ولد في مدينة حلب الشهباء ١٩٤٩ م .
- دكتوراه في اللغات القديمة (السامية).
- مدرس النحو وفقه اللغات القديمة بجامعة حلب .
- مؤلف كتاب "الظواهر اللغوية الكبرى في العربية" .
- ترجم كتاب "المقدمة التمهيدية للغة الآكادية".
- أعير إلى جامعة الإمارات العربية منذ عام (٢٠٠٠)م

هذا ما جاء على الغلاف الأخير للكتاب

وأقول :

- كان رئيساً لقسم التاريخ في كلية الآداب وعضواً في ترميم الجامع الاموي بحلب .
- شارك في مؤتمرات عربية ودولية وأشرف على رسائل ماجستير ودكتوراه في جامعة حلب.
- كان من الطلاب المتفوقين في مراحل دراساته كلها ومثقفاً واسع الإطلاع ، غزير المعرفة في كل المواد التي درسها بالإضافة إلى اللغة الانكليزية ، إذ حفظ قاموس المورد، أثناء خدمة العلم ذلك أكسبه التعرف على الآداب العالمية من خلالها .
- درس اللغة الانكليزية لطلاب الدراسات العليا في جامعة حلب

يقول في المقدمة :

حين أقدمت على ترجمة الأقصوصة الأولى من هذه المجموعة لم يدر في خلدي قط أنني

سأواصل الترجمة حتى تصبح لدي مجموعة تربو على أربعين أقصوصة.

وإنني سوف أنشرها في هذا المجلد الذي أتشرف اليوم بتقديمه للقراء .

القصة القصيرة : ومما لا ريب فيه ان القصة القصيرة في عصرنا تبوأت مكانة سامية بين الفنون الأدبية خصوصاً بعد أن آذن نجم الشعر بالأفول إن عصرنا هذا أصبح بحق عصر القصة القصيرة .

وقد اشتملت المجموعة على أقاصيص لكتاب من الشرق والغرب بعضهم مشهور وبعضهم مغمور .

وقد حرصنا كل الحرص عند اختياري للنصوص ذات مضامين راقية لقناعتي بان العمل الجيد هو الذي ينطوي على فكرة أو رسالة يريد الكاتب إيصالها إلى الناس.

نجاح القصة يرجع إلى عناصر موجودة فيها، فهنالك قصص يُعزى نجاحها إلى مضمونها النبيل ، وأخرى إلى حبكتها المتقنة ، وأخرى إلى لغتها الشاعرة ، وأخرى إلى بنائها الفني المبتكر أو إلى طريقة رسم شخوصها .

استغرق العمل في ترجمة هذه النصوص كثيراً من الوقت وتطلب كثيراً إن الجهد كنت أعود إليها من حين إلى آخر مهذباً ومشذباً ومنقحاً .

هكذا سار المترجم على خطا أجدادنا في الترجمة إذ ترجموا ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة في العصور القديمة .أما في عصرنا فقد ترجم أحمد حسن الزيات قصة رفائيل وآلام فرتر وكثيرة غيره أما في حلب فقد قام الدكتور عيسى العاكوب بترجمات من اللغة الفارسية والإنكليزية إلى العربية وأيضاً الدكتور مصطفى البكور ترجم قصصاً من الأدب الفارسي بعدما حصل على الدكتوراه من جامعة طهران. عندما تقرأ هذا الكتاب تشعر بأن النص أمامك لغته واضحة سهلة إذ تمكن الدكتور من صوغ عباراته بأسلوب عربي فصيح بعدما فهم النص الإنكليزي واستوعب أبعاده .

المؤلفون :

١-غوغل : نيكولاي غوغول (١٨٠٩-١٨٥٢) :

كاتب روسي ألف الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة يعد مؤسس الواقعية النقدية في الأدب الروسي من أشهر رواياته (الأرواح الميتة) ومن اشهر قصصه القصيرة المعطف ص ٩

٢-تشارلز ديكنز (١٨١٢-١٨٧٠) :

كاتب انكليزي من عمالقة كتاب القصة في القرن التاسع عشر . من اشهر أعماله ((الآمال الكبيرة)) و قصة مدينتين وديفيد كوبر فيلر تتسم اعماله بالعاطفة الشديدة وبالطابع الحزين وتعتمد على تجاربه الشخصية وأبطاله من الواقع على العموم ص ٢٦ .

٣- غي دي موبسان (١٨٥٠- ١٨٩٣) :

من اعظم كتاب القصة القصيرة في فرنسا يعد مؤسس المدرسة الطبيعية ، عانى مرضاً عقلياً في أواخر أيامه انصبت أعماله على حياة أبناء الطبقة البورجوازية ، ولا سيما في باريس ص(٥٩) .

٤ - فيرجينا ستيفن دولفا (١٨٨٢ - ١٩٤١):

روائيـة وكاتبـة انكليزيـة ... وقـد أبـدعت خصوصاً في الشكل القصصي ، وهي تعد من أبـرز الشخصيات المؤثرة فـي روايـة القـرن العشرين ... لم يكن اهتمامها ينصب على الحبكة ولا على رسم الشخصيات ، وإنمـا علـى إبـراز وعـي الشخصيات ونـشاطها الـذهني وأفكارهـا ومشاعرها ، وهي الأمور التي تتجسد على نحو رائع في تكتيك تيار الوعي ...

أما أسلوبها النثري فهو أسلوب شاعري إلى حد كبير ومملوء بالصور البصرية الحضرية ... كانت فيرجينيا سيدة المقالة النقدية ص ١٧١ .

٥ - فرانز كافكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤):

كاتب نمساوي من مواليد "تشيكو سلوفاكيا" عانى الاكتئاب واعتلال الصحة وبالرغم من انه كتب كثيراً من الأعمال الادبية ، فإن شهرته تقوم بـشكل أساسـي علـى اثنـين مـن رواياتـه هـي المحاكمـة والقلعـة وهمـا روايتـان رمزيتـان معقدتان ؟ لـم تنـشرا فـي أثنـاء حياتـه ، بـل بعـد موتـه ، وكلاهمـا مكتوبـة بأسلوب جلي واضـح ، وهذا يتعارض كل التعارض مع غموض الحبكة فيها ، إذ نجد الشخوص فيهما تتصارع وتكافح ضد قدر غامض غير قابل للفهم . ص ١٧٦ .

تعليق المترجم :

الدوقة والجوهري :

قصة قصيرة للكاتبة فيرجينيا وولف أما البيئة التـي جـرت الاحـداث فيهـا ، فهـي مدينـة لنـدن بانكلترة والجوهري هو الشخصية الرئيسية فيها . رجل تغلب على فقره وأصبح غنياً جداً حتى إن أفراد الأسرة المالكة أخذوا يقصدونه ويزورنـه لمساعدتهم ..

القصة تصور بطريقة نقدية أصحاب الثروة المكتسبة وأصحاب الارستقراطية الموروثـة ورغبة كل من الطرفين في الزواج من الطرف الآخر لتبادل المنافع .

عندما تبدأ القصة أولاً الجوهري أوليفر وهو رمز لأصحاب الثروة المكتسبة وكان في طفولته فقيـراً يبيـع الكـلاب المـسروقة ، لكنـه فيمـا بعـد بفضل اجتهاده وكفاحه أصبح أعظم جوهري في العالم ، ومع ذلك لم يرض بما وصل إليه ، ولم يقنع بما حققه .

أمـا ((الدوقـة)) فهـي تمثـل الأرسـتقراطية الموروثـة ، تلعب القمـار وتغش زوجهـا وتبيـع اللآلـى الزائفـة ، وتـستغل رغبـة الجـوهري فـي ابنتها .

وأمـا ((ديانـا فقد استخدمت كعنصر إغواء لاوليفـر كـي يـشتري اللآلـىء ، وكـيلاً يفـضح الدوقـة ويـسبب لهـا العـار وعنـدما تـدخل الدوقـة عرفتـه بعطرهـا ومقامهـا . وأناقتهـا وأبهتهـا – تقوم بابتزاز أوليفر لأنها تعلم انه واقع في حب ابنتها ديانا)).

وهكذا .. فالرغبة في الزواج من ارستقراطية (زواج أوليفر من ديانا) يظهر جلياً في القصة . إن (الدوقـة) تبيـع أوليفـر سـراً عـشر للآلـئ بعـشرين ألـف جنيـه وذلـك كـي تـسدد مـا ترتـب عليهـا مـن ديـون طبعـاً مـن غيـر أن نجـد زوجهـا وإن مجرد النزهة في الغابة مع ديانا كان لإغواء أوليفر لـذلك رأينـاه يعطـي الدوقـة المـال مـن غيـر ان يقم بفحص اللآلـئ ، ليـرى مـا إذا كانـت زائفـة

أم حقيقية طبعاً ((أولفر)) يعرف أن اللآلئ زائفة ولكنه يتجاهل الأمر ظاهرياً طمعاً في قضاء نهاية الأسبوع مع ديانا وهكذا فالطرفان مارسا الخداع ص ١٧٠ .

الوصف :

رأينا في الفقرة السابقة كيف حلل الدكتور دركزللي تلك القصة بعلم نافذ . والآن تقطف لك - عزيزي القارئ فقراً من الوصف بأسلوبه الفصيح .

السماء زرقاء والشمس مشرقة والماء يتلألأ، وأوراق الشجر خضراء والأزاهير بديعة أصغيا إلى الطيور المغردة وشاهدا الفراشات في أيام الصحو كل شيء رائع الجمال ص ٢٦ .

فإذا تساقط الثلج وهذا من امتع الأشياء فرحاً بمشاهدة رقائقة تهوى سريعاً كأنها ريش يتساقط من صدور ملايين الطيور لتغفو برقة ونعومة بعد ذلك على ضفة النهر . وكما استمتعا بالسكون المخيم على المسالك والدروب ص ٢٦

معتدل الطول متفتح الوجه صغير العينين حليق اللحية حفا شاربيه

رأيت امرأة ساحرة جميلة طيبة وذكية امرأة من النوع الذي لم يسبق لي أن رأيت مثله من قبل شعرت فوراً بالألفة والمودة نحوها شعرت كأني أعرف ذلك الوجه و تلك العينين الحنونتين الذكيتين منذ طفولتي . ص ٩٥

كانت عيناها ويدها الرقيقة التي تمدها إلي وثيابها المنزلية والطريقة التي تصفف بها شعرها كلها تشعرني دائماً بأنني أمام شيء جديد غير مألوف في حياتي ص ٩٧ .

فتاة لطيفة طيبة القلب ، عاطفية ، ذات عينين حلوتين وصحة جيدة كان الرجال إذا رأوا خديها الورديين وعنقها الناعم الأبيض ذا الشامة الصغيرة الداكنة وضحكتها اللطيفة البريئة يقولون عنها لا بأس بها ص ١٠٤

راحت الصور تنثال على مخيلته كل صورة فيها شاعرية ورائعة أثر من الصورة التي سبقتها ص ١٢٢ .

شعرها المائل إلى الحمرة يتراقص حول وجهها الجميل ص ٢٠٤ .

حكم وأقوال :

هذه حكم وأقوال من القصص :

ليس هنالك ما هو أكثر إذلالاً للمرأة بمظهر الفقيرة بين النساء الثريات ص ٤٩ .

المال كالفودكا يجعل الإنسان يتصرف بشكل غريب عجيب ص ٨٢ .

إن الحياة الرافهة والتغذية والكسل تولد في الإنسان الروسي أشد أنواع الغرور والغطرسة ص ٨٤ .

الكذب الذي يرفع من شأننا أحب إلينا من الحقائق التي تزدري بنا أو تحط من قدرنا "بوشكن "ط ص ٨٥ .

الحرية نعمة لا يمكننا العيش بلا وجودها كما لا يمكننا أن نعيش بلا هواء ص ٨٧ .

شيء رائع أن يعلل المرء نفسه بالآمال أن يحلم بثروة شيء ممتع بل لذيذ جداً ص ١٢١ .

مجموعة من النساء التافهات اللامباليات اللواتي يعشن في الحاضر فقط ص ١٢٤ .

الحب الذي هو أعظم الأمور وأنبلها على الإطلاق إنه يا أصدقائي الأعزاء أعظم معاني الحياة وأشرفها ص ١٣٩ .

إن المرأة تقع في الحب تحت تأثير الكلام الذي تسمعه من فم الرجل ص ١٩٤ .

الرجل يقع في الحب بسبب ما يراه من الحسن في وجه الفتاة ص ١٩٥ .

أيقنت ان هناك قوة غامضة من السحر والجاذبية لا يجدها الرجل إلا لدى عدد قليل من النساء ص ٢٠٤٤٤ .

إن هناك نوعاً خفياً من الجمال لا يمكن أن يقاوم كما لا يمكن معرفة كنهه من النظرة الأولى ص ٢٠٤.

النساء كلهن هكذا يملن إلى المبالغات ويعشقن التباهي بيوتهن ص ٣٢١ .

الحزن العميق يمكن ان يغير الإنسان ويفصم عرى اوثق العلاقات ويحطم أقوى أنواع الحب ص ٣٤٨ .

إن أروع ما قدمه الإنسان ليس الشعر ولا اللوحات الزيتية ولا الموسيقا ولا القلاع ولا التماثيل التي أبدع في نحتها أولا السفن التي ابتناها وإنما الاطفال ص ٣٦٠ .

الإهداء

يقول المترجم
أهدي هذه المجموعة القصصية إلى
الغالية غصون عبد الرحمن دركزللي
فراشة عمري الملونة ووردة حياتي
الناضرة ومصباح أيامي الوضاء

الكتاب القادم

سيجمع الدكتور أبحاثاً نشرها وأخرى لم تنشر في كتاب من نوابغ الفكر أذكر منهم :

المتنبي – المعري – أبو فراس الحمداني – عمر أبو ريشة – ابراهيم هنانو – عبد الوهاب الصابوني .

في هذه الأبحاث وغيرها فكراً نيراً وابتكاراً مركزاً وبحثاً مستوف.

الخاتمة :

كما كنت رائعاً ومبتكراً في كتابك السابق الظواهر اللغوية كذلك الآن في اختيارتك للقصص القصيرة هذه إذ تجولت أعواماً تقرأ وتقرأ وتستوعب حياة المؤلفين وأساليب الكتابة واخترت لنا هذه المجموعة التي تلقي الضوء على حياة الناس في بقاع شتى من المعمورة ، تصور حياتهم ونفسياتهم ، وطرق تفكيرهم ونقلت ذلك بأسلوب عربي فصيح ، وجمل قصيرة وأسلوب قد ارتقى إلى مدارج البلاغة

* * *

من روائع القصص العالمية القصيرة
ترجمة: د.عبد الرحمن دركزللي
طباعة مكتبة زيزان ، حلب ٢٠١٠ م
عدد الصفحات : ٣٨٥
عدد القصص ٤١

قراءة نقدية في

تربية البنات

كتاب لـ أحمد الخميسي

بقلم:
سليمان مصطفى السليمان

١ - عرض الكتاب

تعدّ التربية ركناً أساسياً من أركان بناء المجتمع في كلّ مكان وزمان، لأنَّ هذه التربية تعكس قيم الإنسان، وعاداته، وتقاليده، ومستواه الثقافيّ، واعتقاده الديني، وكلّما اعتنت الأسرة بتربية أبنائها خرَّجت جيلاً مدركاً أهمية وجوده، أهمية تراثه، أهمية تمسكه بالماضي، بهويته واستقلال شخصيته.

ومن خلال التربية نستطيع أن نحدد عمر المجتمعات، فبالأخلاق والقيم والثقافة، والعمل الدؤوب ترقى المجتمعات، ويتضح للمفكر عمرها المديد لأنها لن تموت إذ إنَّ حجر الأساس فيها متين قوي متراص؛ هذه القوة تتطلبها الحياة في هذا الزمن الذي غزت فيه الفضائيات كلّ بيت، كلّ فرد، وأرادت تخريج جيل متعلّق بما يراه على الشاشة، منتقد للأساليب التي تروّضه تلك الأساليب التي تقدّمها الأسرة، وتأتي متعارضة مع مايراه على الشاشة فيحتد الجيل وتتفاقم حالته، وتتأزّم نقاشاته مع ذويه ضمن المنزل الواحد؛ هذا الصراع القائم بين حاضر التربية الأسريّة، وما تقدّمه الشاشة أحياناً من ملوّثات تقف حجرة يتعثّر بها الناشئ، وتغدو تربيته على القيم والأخلاق أمراً صعب التحقق ممّا يجعل الأسر تعاني الأمرّين، وتحاول بطرق شتى جعل أبنائها يسيرون على الطريق الذي يرسّخ هويّتهم، ويضمن لهم البقاء في سفر التاريخ، لأنَّ الأخلاق هي الأساس الذي تقوم عليه الأمم، أو ليس من أجدادنا من صرخ قائلا:

إنّما الأممُ الأخلاق مابقيت
فإنْ همُ ذهبَتْ أخلاقهم ذهبوا

هذا العراك دفع المعلّم أحمد حسن الخميسي إلى التوجه لتناول ركن الأسرة الأهم وهو الأمّ كونها المدرسة الأولى التي يتتلمذ الطفل على

يديها من أجل أن يقدّم لها ولأسرتها مايفيدها في المستقبل، فكان كتابه "تربية البنات في وصايا الآباء والأمهات" الذي صدر عن دار القلم العربي بحلب، وبطبعته الأولى للعام ٢٠٠٧؛ هذا الكتاب الذي جاء في /١٤٤/ صفحة من القطع الوسط، وقد جعله المؤلف في ستّة فصول سبقتها مقدّمة للمؤلّف بيّن فيها بشكل غير مباشر السبب الذي حدا به إلى تأليف هذا الكتاب إذ يقول: "وإذا كان معظم الناس يسرّون لولادة الصبيّ، وينزلونه منزلة لائقة أكثر من سرورهم لولادة البنت إلاّ أنهم يربّون البنت تربية خاصة، ويولونها رعاية تتماشى مع أنوثتها حتّى الصغر حتّى تدخل عشّ الزوجية، حاملة رسالة الأمومة " (ص٥).

فالمؤلف يعي دور المرأة في بناء الأسرة والمجتمع لذا يريدها أن تكون صالحة على الرغم من محبّته للذكر إلاّ أنه يولي الفتاة عناية كبيرة ويعدّها إعداداً سليماً حتى تكون قادرة على بناء منزل وإعداد جيل صالح.

وقد حرص المؤلف أن يقدم في الفصل الأول من كتابه أربع قصص أولها صورة مي لسلمى جبران صايغ، وثانيها "الأب وطفلته الحبيبة" للدكتور إبراهيم الكيلاني، وثالثها: "الآباء والأمهات قدوة للبنات" للدكتور طه حسين، ورابعها "الفراشة ابنة الشاعر" للدكتور أحمد زياد محبّك ففي القصة الأولى "صورة مي"؛ هذه القصة القصيرة تخبر عن فتاة في الثامنة من عمرها واسمها "مي"؛ هذه الفتاة رُبّيت على احترام الوقت والتزام أوامر السماء؛ هذه التربية تشير إلى الهدف المتبقي من جعلها فاتحة الفصل الأول إذ جاء في نهايتها مايشير إلى تقيّدها بالوقت وعبادتها، "مي تدخل سريرها الساعة السابعة، وكثيراً مايقهرها سلطان النوم قبل أن تنتهي من صلاتها الصغيرة وهي طروبة ترنّ ضحكتها الغالبة في جوانب الدار كأجراس العيد...".(ص٩)

هذا القول يؤكّد لنا تقيّدها بالوقت؛ هذا التقيد ينبه الآباء والأمهات على ضرورة تربية الأطفال على تنظيم الوقت، وتنشئتهم تنشئة صحيحة، وتعليمهم أمور دينهم، وجعلهم يمرحون لأنّ الحياة تتطلب العمل، والنظام والراحة، وكلّ هذه الأمور أحاطت بجوّ تربية ميّ.

وفي قصّة "الأب وطفلته الحبيبة" للدكتور إبراهيم الكيلاني تأكيد على جمال الطفولة، ووصف لبراءتها عبر امتثال قول ابن الرومي:

وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشي على الأرضِ
لو هبّتِ الريحُ على بعضهم لامتنعَتْ عَيني عن الغمضِ

تلك حالي وحال كلّ أب خلق مثلي رحيماً عطوفاً ضعيفاً بل هلوعاً أمام هذه الرابطة الحيويّة الأزلية التي منها ينبعُ كل حب، وينبثق كلّ عطف، (ص١٠).

فالخميسي يورد هذه القصة من أجل أن يقدّم نصيحة للآباء والأمهات مفادها الرقّة واللطافة في التعامل مع الأطفال، لأنّ الأطفال عجينة طريّة تخبز بالطريقة التي يختارها الآباء، وتشوى بالفرن الذي يريدونه لها فيتوجّب أن يكونوا رحماء في خبزها.

والذي يميز هذه القصة تركيزها على الحنان، وقد ظهر ذلك على لسان الأب القائل: "إنّي لاأزال أذكر ياطفلتي الحبيبة صورة في أحد كتب التاريخ تمثل أحد الملوك وقد امتطى ظهرَه ولداه وهو يزحف بهما وهما على ظهره فرحَيْن مزهوَّيْن". (ص١٢)

وكأن المؤلّف يدعو الآباء للتعامل مع الأطفال معاملة تنبض بمشاعر الحنان، والعطف حتى يلتصق الابن بوالده ويحسّ بالأمان والاطمئنان معه.

ويمضي الخميسي ليسرد أخباراً عن الآباء والأمهات الذين كانوا قدوة لبناتهم؛ هذه القصة التي تدعو إلى التعاون بين البنت وأبيها، وقد ظهرت هذه الدعوة في نهاية القصة: "ليس دَيْنُ أبيك الملك بأقلّ من دينك فلتتعاونا يابنتي على أداء هذا الدين". (ص١٦)

إنّها دعوة مباشرة لزرع الوفاء للوالد، وعدم نكران فضله لأنَّ هذا الفضل دين في رقبة الفتاة التي ربّيت على يدي والدها.

ومن العلاقة بين الآباء والأمهات الذين كانوا قدوة لبناتهم إلى قصة "الفراشة... ابنة الشاعر" للقاصّ أحمد زياد محبك، وهي قصة مهداة للشاعر مصطفى أحمد النجار، وفي هذه القصة وقوف من الصديق إلى جانب صديقه الذي رثى ابنته "مروة" رثاء يدلّ على مدى تعلقه بها وتأثّره الكبير برحيلها؛ هذا التأثر دال على براءتها براءة الطبيعة وهي قصة واقعية تجعل القارئ يبكي لوفاء الأب لابنته الصغيرة.

وينتقل المؤلف أحمد حسن الخميسي إلى الفصل الثاني الذي جعله في تربية البنات عبر ذكر أمور خاصة في وصايا البنات حول الواجب والمندوب والمباح والأخلاق الفاضلة والاستشهاد بأحاديث للرسول ﷺ، ومما جاء في الحديث عن الحياة قول الرسول عليه السلام: "الحياء حُسنٌ ولكنه من النساء أحسن".ص٢٨

ويعرّج المؤلف من ذكر أمور خاصة في وصايا البنات إلى تربية البنات في وصايا الآباء والأمهات، فيحدد معنى الوصية لغةً واصطلاحاً، كما يحدد مفهوم البنوّة، وينتقل للحديث عن وصايا قديمة وحديثة قدّمها الآباء والأمهات للبنات، سارداً الوصايا القديمة والحديثة تاركاً المجال للقارئ حتى يعود بنفسه إلى تلك الوصايا في أمّهات الكتب، محدداً الأهداف لتلك الوصايا ودوافعها، مسلطاً الضوء على موضوعات الوصايا إذ حصرها في حقوق الزوج والانتقال إلى بيت الزوج، ووصايا حول الزواج وأهميته، وأهمية الاهتمام بالجمال، وإدارة المنزل مستندا إلى أدلة لكتّاب أدلوا بدلوهم في هذا الجانب وبما ورد في القرآن والسنّة، معلّقاً على ماقدم بذكر خصائص وصايا الآباء والأمهات للبنات.

أما الفصل الثالث فقد جاء في وصايا تربوية متنوعة إذ افتتحه بحديث رسول الله يافاطمة أنقذي نفسك وانتقل إلى وصيّة بذكر الله عند النوم، وقد أشار إلى زيارة رسول الله إلى فاطمة؛ هذه الزيارة الدالة على التودّد للصهر، واللين في خطابه، والتأكيد على إحسان البنت، والتواصل معها بسرد رسالة للدكتور فاخر عاقل إلى ابنته، والمقارنة بين عالم الشباب وعالم الأنوثة، وتربية البنات والبنين، وعلاقة المرأة بالعمل، والجمال، والزواج، وكيفية نظرة الرجل إلى المرأة خارج البيت وداخله، وكيفية تربيتها لأبنائها، وترك حرية الاختيار لها بسرد رسالة من الشاعر حمزة شحاته إلى ابنته شيرين حيث تتّضح مشاعر الأب نحو ابنته، وتحريضه لها لكي تتغلَّب على الصدمات، وتستفيد من التجارب، وتواجه الحياة بقوة، وتحسن الظن بالناس، وتربّي ابنها تربية صالحة، وتسير بشكل صحيح في الحياة، وتخلص في أعمالها لوجه الله، كما يسرد رسالة "نهرو" لابنته "أنديرا"، ويسرد قصة "وصيّة وتضحية" المستقاة من رواية "ثمّ أزهر الحزن" للأديب فاضل السّباعي.

وفي الفصل الرابع يذكر المؤلف وصايا الآباء والأمهات للبنات عند الزواج، وهي خمس وصايا شغلت الصفحات المحصورة بين الصفحتين (٨١و ٨٦) ، حيث كانت الأم توصي البنت بالغد الذي ينتظرها وتجعلها تتخيل بيتها الجديد وتركّز على وصايا الزواج طالبة منها العقلانية والأدب واحترام الزوج والطاعة له الناتجة عن المعاشرة له بالقناعة، ورؤية كل

شيء جميل من البنت، والاهتمام بالنظافة والجمال، والاستعداد لاستقباله عند العودة وإعداد الطعام له، والحرص على المنزل، والحشمة وكتمان السرّ، وعدم عصيان الأمر، ومشاركته في أتراحه وأفراحه، وعدم الميل لهوى النفس، والابتعاد عن الغيرة، ويختم الخميسي هذا الفصل بوصيته لأمّ معاصرة مقتبسة من وصايا ذهبية للزواج السعيد لنعيمة ناصف.

وفي خامس الفصول الموجودة في الكتاب وصايا العلماء والأدباء للفتيات وهي أربع وصايا وقد شغلت الصفحات المحصورة بين الصفحتين (٨٩ و ١١٢)، حيث سرد المؤلف حديثاً للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي إذ تضمن الحديث رسالة إلى كلّ فتاة تؤمن بالله، قامت هذه الرسالة على التعلّم الناتج عن طرح السؤال والإجابة عنه، وألحقه بنصائح لعليّ الطنطاوي موجهة إلى فتاة تعاني الأمرّين، ثم أتبعها برسالة حكيم حول تربية البنات لحكيم فرنسي اشتغل بالتربية، ونشر كتابه المشهور تربية البنات، وفيه حديث عن تربية الأم والمدرسة لهما، وتأثير الصاحبات على البنات، والتركيز على الأمراض القلبية والاجتماعية، وما يجب على البنت فعله، والإشارة إلى الاعتدال والحكمة ومحبّة الله والفضيلة، وختم الفصل بتحذيرات موجهة للفتاة مستقاة من كتاب "وحي القلم" للرافعي.

أما في الفصل السادس فقد وقف المؤلف على قصص البنات الذكيّات... التقيات، وذكر إحدى عشر قصة جاء مابين الصفحتين (١١٥و١٤١)، وقد افتتح الفصل بالحديث عن البنات في القرآن، وبنات النبي محمد عليه السلام إذ سرد قصصاً عنهنَّ، كما سرد قصة ابنتي شعيب ومريم ابنة عمران، وأشار إلى ذكاء ابنة هرمة، واستغفار فتاة، وقصة "دعوه فهو ليس برازق" المقتبسة من "قصص من رياض الإسلام" لرياض مصطفى العبدالله، والحديث عن السُّقيا يوم القيامة، وبنت نبي هذه الأمة، وابن المبارك والفتاة الفقيرة، وفتاة تخشى الله، ومالك بن دينار، وابنته الصغيرة، والفتاة وهارون الرشيد، وخاتمة الفصل والكتاب بكاء فتاة.

٢- منهج المؤلف في الكتاب:

لقد اتّبع الخميسي منهجاً علمياً استقرائياً في الفصول التي تناولها كتابه إذ انطلق في الفصل الثاني من توضيح يتبادر إلى ذهن القارئ عندما يسمع كلمة "وصية" قد يظن الوصية المالية، ولكن المؤلف ينقله إلى معناه فيقول: "الوصية في اللغة تعني: الفرض والعهد كما تأتي بمعنى الوعظ" . (ص٣٠)

والخميسي ذو منهج واضح في عرض فصوله، فهو في الفصل الثاني ينتقل من تعريف الوصية لغة إلى تعريف الراغب الأصفهاني إلى الاستشهاد بالقرآن، وينتقل لتحديد مفهوم النبوّة فيورد ماقاله العسكري في كتابه الفروق في اللغة: "الولد يقتضي الولادة، ولا يقتضيها الابن، فالعلماء يسمّون المتعلمين أبناءهم، ويقال لطالبي العلم أبناء العلم، فالابن يفيد الاختصاص ومداومة الصحبة...". (ص٣٠)

ويأتي تعليق الخميسي على ماقاله العسكري: "... فالعالم مقامه مقام الأب بالنسبة إلى تلميذه". (ص٣١) هذا القول يشير إلى اتساع مفهوم البنوّة لأنّها ليست مرتبطة بالأسرة فحسب، بل إنها مرتبطة بكلّ من تسدي إليه معروفاً يساهم في تكوين وصقل شخصيّته.

ومما يدلّ على وضوح المنهج إيراد وصايا الآباء والأمهات للبنات؛ تلك الوصايا القديمة والحديثة. (ص٣١) وتحديد أهدافها ودوافعها، والخميسي يذكر "شيرين" ابنة الشاعر حمزة شحاتة التي تأثّرت برسائل والدها قائلة:

"أصبحَتْ هذه الرسائل على مرّ الأيام جزءاً عزيزاً من نفسي...، أقرأ كل رسالة منها عشرات المرات فتعوّضني عن غياب الوالد، وتؤنس تعطّشي لوجوده إلى جواري...، فكانت النصائح التي تضمّنتها خير مرشد ومهذّب". (ص٣٣)

فدور الأسرة ليس متصلاً بوجود الأبوين على قيد الحياة بل إنهما موجودان في ذهن الجيل، وإن فارقا الحياة، هذا الوجود عبّرت عنه شيرين التي جاء على ذكرها الخميسي.

والخميسي يمضي ليؤكد لنا أنّ الوصايا أكثر ماتوجه للبنات بعد سنّ البلوغ، وخاصة عند الزواج حيث يقول: "أما الوصايا الموجّهة إلى البالغات الراشدات فهي تبقى معهنّ مكتوبة ومحفوظة تذكرهنّ بما قاله الآباء والأمهات". (ص٣٣)

هذا التعليق الذي يؤكّده الخميسي يشير إلى أهمية الوصايا، والدافع الذي يجعل الأسرة تقدم وصاياها لابنتها.

والخميسي يشير إلى كيفية ورود الوصايا فيرى أنّ بعضها ورد من الأب والأمّ بسبب مناسبة كالزواج، وبعضها جاء نتيجة سؤال وجّهته البنت لأبيها أو لأستاذها العالم كما في رسالة علي الطنطاوي لفتاة سألته عن رأيه في بعض المسائل. (ص٣٣)

ويزداد منهج الخميسي وضوحاً عندما يشير إلى موضوعات الوصايا، فيراها متصلة بحقوق الزوج إذ يسرد الوصية التي قدمتها الأم في يوم زواج ابنة أمامة بنت الحارث، حيث عددت لها عشر خصال يجب أن تحفظها الزوجة لزوجها، وهذه الوصايا ترتبط بحسن المعاشرة والقناعة والاعتناء بالمظهر اللائق للمرأة المتزوجة، والاستعداد لاستقبال الزوج، وتأمين الراحة له، والمحافظة على ماله وعياله، وكتم سرّه، وتنفيذ أوامره. (ص٣٤- ٣٥)

ولعلّ ذكر الخميسي للوصايا التي يحفظها الناس لمجرّد سماعها يأتي دليلاً على اعتناء الأمهات ببناتهن وتقديم النصح والإرشاد لهنّ قبيل دخول عشّ الزوجية، لأنَّ من شأن هذه الوصايا المحافظة على هذا العشّ.

لقد أورد الخميسي موضوعات أخرى في الوصايا؛ هذه الموضوعات تتصل بتأدية البنت ماعليها من صلاة وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى حيث يذكر الرسالة رقم /١٤/ التي أرسلها الشاعر حمزة شحاته إلى ابنته طالبا منها الإخلاص، والمحافظة على الصلاة مستشهداً بآية قرآنية وحديث قدسي، وبعد إيراد هذه الرسالة يأتي تعليق الخميسي بسيطا موجزاً حيث يقول: "كما أن الوصايا حثت على الفضائل ونهضت عن الرذائل، ودعت إلى فعل الخيرات وترك المنكرات، وأن لاينتظر الفاعل للخير جزاء البشر". (ص٣٩)

فالخيمسي بعد أن يذكر العنوان الذي وردت تحته الوصية يوردها حسب عنوانها ويعلّق عليها تعليقاً بسيطاً مفهوماً من شريحة واسعة من الناس.

٣- الهدف من تأليف الكتاب:

لعلّ الهدف الذي دفع المؤلف الخميسي لتأليف كتابه "تربية البنات في وصايا الآباء والأمهات" يتّضح جلياً من المقدّمة ومما حواه كتابه من قصص هادفة واعيّة؛ هذه القصص التي تكون بمثابة درس تربويّ مبسط، مؤثر، مشوّق يريد من خلاله ذرع بذور تربية صالحة للفتيات في عصر تحارب فيه الأسرة، ويحاول الغزو الثقافي محو ذاكرة الفتاة من أجل تهديم البنى الأساسية في الأسرة، والخميسي يريد للأسرة أن تبقى متماسكة، متمسكة بالماضي آخذة العبر والدروس من قصص ترتبط برموز تاريخية ولا سيما تلك القصص التي وردت في الفصل السادس من الكتاب إذ تناول قصص

بنات النبي وابنتي شعيب ومريم بنة عمران، وذكاء ابن هرمة وبنت نبي هذه الأمة، وابن المبارك والبنت الفقيرة، ومالك بن دينار وابنته الصغيرة؛ هذا الذكر لهذه القصص يجعل الأسرة متمسكة بالتراث، والخميسي مااقتصر على ذكر القصص التراثية إذ ذكر قصصاً لكتاب معاصرين؛ هذا الذكر غايته المزاوجة بين الأصالة والمعاصرة، كما أنه أورد رسالة نهرو إلى ابنته ظناً منه أن التربية الصحيحة ليست مقتصرة على الأمة العربية لن البذرة الصالحة تناسب البشر جميعاً، وهذه المناسبة لعلّها متصلة بعالمية القرآن، وإنسانية الإنسان.

٤- ملاحظات حول الكتاب:

إن أهم مايتميز به الكتاب "تربية البنات في وصايا الآباء والأمهات" هو تنوّع مادته، وتنوع الشواهد المرتبطة بتلك المادة؛ هذا التنوّع يجذب القارئ ويجعله يتشوّق لمعرفة المزيد عندما تقع يده على الكتاب.

والميزة الأخرى التي يلاحظها القارئ عبر تأمّله لموضوعات الكتاب هي وضوح اللغة، وبعدها عن الغموض والتكلف لأنَّ مسألة التربية تتطلب الوضوح، وبذلك يكون الخميسي مراعياً لأحوال الناس، ويبدو كتابه في متناول القراء على اختلاف مستوياتهم العمرية.

وتضاف ميزة أخرى إلى الكتاب وهي حسن الترتيب والتبويب، هذا التبويب يأخذ بيد القارئ ويجعله متسلسلاً في تفكيره، مدركاً وعي الخميسي إلى أهمية ذلك التسلسل.

ومن المزايا الحسنة في هذا الكتاب جودة إخراجه ووضوح خطّه، هذه الجودة تجعله كتاباً تسهل قراءته.

أمّا مايؤخذ عليه هو عدم ذكره لكتب تناولت موضوع التربية؛ تربية البنات، وحبّذا لو أنه أحال القارئ إلى بعضها من أجل التوسّع في فهم هذا الموضوع الهام في حياة الأسرة.

ومما يسجل عليه أنه لم يخرّج الأشعار التي وجدت في ثنايا القصص أو الرسائل أو الوصايا، وإن استقاها الخميسي غير مخرّجة فإنَّ البحث العلمي يتطلب منه تخريجها وربطها بمناسبة قولها وبالمراجع الأساسية التي وجدت فيها.

كما يؤخذ عليه عدم اتباعه منهجاً واحداً في توثيق مادته ولا سيما فيما يتعلق بترجمة الشخصيات ففي قصة "فتاة تخشى الله" (ص١٣٦) ترجم لعمر بن الخطاب في الحاشية على حين أنه أغفل ترجمة مالك بن دينار في القصة التي تلتها مباشرة (ص١٣٧) كما أغفل ترجمة الفتاة وهارون الرشيد. (ص١٤٠)

ولو أنه اعتمد الوحدة في التوثيق لكان كتابه أكثر دقة من الناحية العلمية، ومما يسجّل عليه أنه أغفل الفهارس المرتبطة بالمصادر والمراجع والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأسماء الأعلام والأشعار والأمثال، ولو أنه خصص له فهارس قبيل المحتوى في نهاية الكتاب لاتّسم كتابه بالغنى والشمولية سيّما أنّنا نعيش في عصر يركّز على الدقّة.

ومهما يكن من أمر يبق كتاب "تربية البنات في وصايا الآباء والأمهات" كتاباً معاصراً عصرياً مفيداً لابدّ للمكتبة في أي منزل من اقتنائه ودفع الأبناء لقراءته وفهم ماتحتويه سطوره وتمثلها في الحياة لأنَّ الأسرة تربي وتصارع من أجل ترسيخ أسس تربيتها للأبناء، وتحتاج إلى معين لها، ولعلّ هذا الكتاب يعين الأسرة في الظروف الصعبة التي تقف أمامها، وتحاول ثنيها عن أداء واجبها تجاه أبنائها في أي مجتمع من المجتمعات، وقد صدق جان جاك روسو عندما قال:

"إذا أردتم رجالاً عظاماً فعليكم بالمرأة تعلمونها ما الأخلاق وما الفضيلة ".




عاصفة العشق

خالد بدور

علــى نَغَمــاتِ صــوتِكِ هَدْهِــديني
ومــن تهطــالِ عــشقكِ دثّــريني
فمــا مــن رغبــةٍ في الــنَّفسِ إلاّ
تُحَــرِّكُ كــامِنَ القلــبِ الحــزينِ
يكــادُ الحُــبُّ يقــتُلُني حنينــاً
وتلتهِــبُ المــشاعِرُ مِــنْ شُــجوني
أيــا إيمــانُ عِــشقُكِ في ضَــميري
كمَــوجِ البحــرِ يلطُــمُ كُــلَّ حــينِ
نَظَمْــتُ إليــكِ مــن نبــضاتِ قَلْــبي
إذا رُمْــتِ الــوِدادَ.. فــاخبريني







وفي الأحــلامِ أرحَــلُ كُــلَّ ليــلِ
إلى لُقْيــاكِ في كَنَــفِ الحَــنينِ
إلامَ العُمْــرُ يَجْــري مُــسْتَطاراً
ولا نَخْــشَى الــضَّياعَ مِــنَ الــسِّنينِ
دَعــي القُــبُلاتِ تَــصْهَرُنا شِــفاهاً
ونَرشُــفُ خَمْــرَةَ الحُــبِّ الــدَّفينِ
ونَحْيــا العُمْــرَ أيَّامــاً عِــذاباً
نُغافِــلُ أَعْــيُنَ الــزَّمَنِ الــضَّنينِ
إذا مــا الوصْــلُ أجَّــجَ خافِقَيْنــا
بَلَغْنــا نَــشْوَةَ الــسِّرِّ المكــينِ
ســأبقى.. والوفــاءُ إليــكِ عَهْــدٌ
مــدى الأيَّــامِ يَكْبُــرُ.. صَــدِّقيني







تزورني وأزورها

محمود أسد

مــن ثغرِهــا قــد ســقيتُ الـرّوح والغـدقا

والمــرء في حــسنها يَــسْتَعْذِبُ الغرقــا

تُخــالِطُ الـرّوحَ والأفكــارَ، تعــزف لــي

لحنــاً يــرقِّصُ قلبــاً، كابــدَ القلقــا

قلــبي يــرفُّ اليهــا، والمعــاني بــدَتْ

حَــسْناءَ، تُرْسِــلُ حُــسْناً يُــسْكِرُ الحدقــا

أَحْبَبْتُهــا واســتبدَّ العــشقُ في خَلَــدي

تــأتي صــباحاً ونــورُ القلــب قــد بــرقا

أرنــو إلى شَــعْرِها، أحبــو إلى حُــضْنها

مــازال قلــبي إليهــا، يغــزِلُ العَبَقــا

أحبَبْتُهــا وأنــا طفــلٌ وشيــخٌ، رأى

في الحــبِّ ألــف طريــق. يــزرع الألقــا







تزورنـــي وأزورُهـــا، ولمَّـــا أجـــدْ
أصـفى مـــن العـشقِ، يـأتي مثلمـا خُلِقـا
آتـــي اليهـــا مـــساءً، أطـــرق البـــابَ، لا
ترمـــي نقابـــاً، ولا تبـــدي أســـىً عَلِقـــا
تـــأتي إلـــيَّ إذا شـــاءَ الهـــوى، وإذا
شـــاءَ المحـــبُّ تلبِّـــي، تمـــلأ الورقـــا
لا تمنـــعُ الـــسّائِلَ الملتـــاعَ مطلبـــهُ
تجـــودُ بالفـــيْءِ حتّـــى تمـــسَحَ العَرَقـــا
منهـــا الطّفولـــةُ تُـــسْقى، والقـــصيدُ غـــدا
حـــسناءَ فاتنـــةً، منهـــا النـــدّى انبثقـــا
هـــامَ الـــشّيوخُ بعَقْلِهـــا فكانـــت صـــدىً
للحـــبِّ والبـــوحِ، جـــاءَتْ تجمَـــعُ الفِرَقـــا
في دربِهـــا هـــامَ شَـــيْخٌ، لا يـــرى غيرَهَـــا
لكنّهـــا فتحـــَتْ دربـــاً، ومـــا انْغلقـــا
لِحُـــسْنِها جُـــرِّدَتْ نـــارُ الـــسّيوفِ، فمـــا
لانَـــتْ لوغـــدٍ، أتـــى. يدعـــو كمـــنْ نهقـــا







عجيبــــةٌ، لا تــــردُّ حائــــراً رامَهــــا
انْ جــاءَها سكبـــَتْ ألحاظَهـــا دَلِقـــا
العَيــْنُ ســبحان باريهـــا، فمـــا تَعِبَــتْ
مِــنْ بوحِهــا، وهــوَ الماءُ الــذي طفِقــا
هِــيَ الــدّواءُ لحــيٍّ صابـــهُ أَلــَمٌ
فــالنّورُ منهـــا مُطـــلٌّ يَطمِــسُ الأرقـــا
بحُــسْنِها غــرَّدَتْ، واستحــضَرَتْ دُرَراً
فيهـــا البيـــانُ، فلـــمْ تأبـــهْ بمَـــنْ نعقـــا
ولم تجــدْ حُــسْنَها إلاَّ علــى عــالِمٍ
بــزَّ الجميــعَ بمــا يتلــو، ومــا نَطَقــا
صــانَتْ كرامَتَهـــا ورَوْضَــها وأتَـــتْ
بالزّهــرِ والحـــبِّ مــضفوراً ومُؤتَلِقـــا
هـــيَ البيـــانُ وأمُّ الـــضّادِ، يـــا ليـــتني
أحمـــي صِـباها وقولـــوا: شـــيخُنا عـــشقا







قادم من العالم الآخر

نظير جابر

مهداة إلى الأستاذ الكبير مدحة عكاش

أمشي وحيداً مرّة أخرى على الخطِّ القويمِ
والجمدُ تحتي يلفحُ الكونَ المستعرَ بالضّريمِ
رضوانُ يمسحُ جنّة الفردوسِ بالنّورِ المشعْشعْ
ومالكٌ يُلقي على أتباعهِ الدُّرَّ المرصّعْ
أنّى اتّجهتَ ترى العيونَ الخضرَ تلتحِفُ الظلاما
وتبثُّ منهنّ الغوايةَ والكياسةَ والغراما
والنّاسُ في شُغُلٍ عن الغزلِ المضمّخ بالعبيرِ
كلٌّ يفكّرُ بالحسابِ وبالعقابِ وبالمصيرِ
وتسلّم السَّجّان بالحسنى كتابي من يميني
وقرأتُ فيه براءتي وطهارتي ومدى يقيني
وأتيتُ للدنيا صغيراً حائرَ النظراتِ حالمْ







أصحو على وترِ الصِّبا الرّيّانِ والبيض النّواعمْ
وأرشّ أنداءَ البنفسجِ فوق أجواءِ الأعالي
تتلألأُ الأطيابُ جذلى من عناقيدِ الدّوالي
أمسي مضى، وغدي ترهَّلَ بين أنيابِ المآزقْ
ونسائم الآمالِ ترقص تحتَ أعوادِ المشانقْ
نامتْ نواطيرُ الكرومِ وزغردَ الجملُ الوسيمُ
وتحلّقَ الفئران والجرذان والخير العميمُ
سلبَ الكرى من ناظريَّ نضارةَ الحلم السّعيدِ
وأضعتُ عمري بين صبح الوعدِ أو لَيلِ الوعيدِ
ساءلتُ أصحابي وهل بقيتْ مع السَّلوى صِحابُ؟
فتثاءبتْ تشكو وغمغم في مدارجها الجوابُ
أو منْ يُعينُ على الصِّعابِ إذا اتبرَّجتِ الصّعابُ
وتنوحُ في أفيائها الثكلى المآذنُ والقبابُ
وأدورُ في دوَّامةِ حبلى بصندوقِ الهزائمْ
أتحسّسُ الجسدَ النّحيلَ، مكحِّلاً جفنَ البراعمْ







مـن لـي بـساريةٍ يرفـرف فوقهـا عَلَـمُ البـشائرْ؟
لأبثّهـا وجعـي وأزرع تحتهـا غُـرَرَ الخـواطرْ
رقـدتْ أمـانيَّ العِـذابُ علـى بـساطٍ مـن حريرِ
وتبخّـرتْ سـكرى مغميَّـةً بأنـاسِ الغـدير
لم أدرِ إنْ كـان النّهـارُ يلـوح في الأفـق البعيـدِ
أم أنّ طيـفَ النـازلاتِ يعـجّ في النّفـق الـشّريدِ
زوّدتُ كـلَّ مـسالكِ البلـوى بفـيضٍ مـن عَـذابي
وابيضّ شَعري من جراحاتِ النّوى وذوى شبابي
وأدرتُ دولابَ الزّمـانِ علـى مـسارٍ مـن رغـابي
فرأيـتُ أسرابَ العناكـبِ تمتطـي قِمَـمَ الروابـي
وتـوزِّعُ البـسماتِ هازئـةً بـأمواج الـضّبابِ
ووجـدتُ نفـسي بـين أفـواجِ الأرائـبِ والـذئابِ
لملمـتُ أجـنحتي ومرّغـتُ المهـازلَ بـالترابِ
أغلقتُ بابَ مغارتي وصرختُ ما أحلى إيابي!
ورجعـتُ للكـون الفـسيحِ يـضمّني شبحُ اغترابـي







سحرُ الهوى في قريتي

منير العباس

يــا صـاحبي لا تَقُـلْ إنَّ الهـوى صُـوَرٌ
قّـدْ خَطَّهـا كَيْفمـا يَحْلُـو لَـهُ الْقَـدَرُ

فالحـبُّ يـا صـاحِبي رُوْحٌ مُتَوَّجَـةٌ
تُدَغْـدِغُ الْقَلْـبَ إذْ يَهْفُـو فَيَـأْتَمِرُ

إيْـهٍ صَـدِيْقِي لَكَـمْ أوْقَـدْتَنِي شَـغَفاً
إلى ليـالٍ حِكايـاتِيْ بِهـا عِبَـرُ

هَيَّـا مَعِـيْ لِتَـرَى سِـحْرَ الهَـوَى وَتَـرَى
عِطْـرَ الْعَواطِـفِ فِـي الأرْيَـافِ يَنْتَشِرُ

تَلْقَـى رِيَـاضَ الْهَـوَىَ وَالـنَّجْمُ يَحْرُسُـها
والـشهبُ تهـوي حَوَالَيْهـا وَتنتحـرُ

فِـيْ قَرْيَتِـيْ يَـسْتَحِمُّ الْحُـبُّ فِـيْ بِـرَكٍ
مِـنَ الْمَفَـاتِنِ لا يَنْتَابُهَـا كَـدَرُ

أَصَائِصُ الْـوَرْدِ فِـي أَحْـوَاضِ قَرْيَتِنَـا
تُمَـارِسُ الْعِـشْقَ إذْ مـا مَـسَّهَا مَطَـرُ







وَالزَّيْزَفُـونُ عَلَـى نَهْـرِ الْهَـوَى ثَمِـلٌ
تَجَـرَّعَ الْحُـبَّ حَتَّـى رَاحَ يَخْتَمِـرُ
وَالسَّهْلُ تَخْتَـالُ فِـي تِيْـهٍ سَنَابِلُهُ
وَالسَّفْحُ يَغْفُـو عَلَـى أَنْسَامِهِ الشَّجَرُ
وَيَخْـرُجُ الأَهْـلُ فِـي عَـزْمٍ يُكَلِّلُهُـمْ
لِيَحْصُدُوا أَمَـلاً فِـي الْحَقْـلِ قَـدْ بَـذَرُوا
يُقَبِّـلُ النَّـايَ رَاعِـي الْحَـيِّ يُنْطِقُـهُ
لَحْنـاً تَتِيْـهُ بِـهِ الأَغْنَـامُ وَالْبَقَـرُ
كُنَّـا صِغَاراً وَمَـا فِـي الْحُـبِّ مِـنْ صِغَرٍ
كَـمْ مِـنْ كِبَـارٍ لِسِرِّ الْحُـبِّ قَـدْ نَكَـرُوا
نُغَافِـلُ الأَهْـلَ كَـيْ تَنْـأَى خَوَافِقُنَـا
إِلَى ظِبَـاءٍ عَلَـى أَضْلاعِنَا عَبَـرُوا
وَنَمْتَطِـي اللَّيْـلَ فِـي مِشْوَارِ مَوْعِـدِنَا
وَفِـي اللَّيَـالِي طَرِيْـدُ الْعِشْقِ يَسْتَتِرُ
وَنَقْـصِدُ النَّبْـعَ حَيْـثُ النَّبْـعُ يَجْمَعُنَـا
بِالْفَاتِنَـاتِ فَيَحْلُـو بَيْنَنَـا السَّمَرُ
هُنَـا الصَّبَايَا غَـزَلْنَ الْحُـبَّ مَلْحَمَـةً
وَهَاهُنَـا فِتْيَـةُ الأَحْلامِ قَـدْ سَكِرُوا
فَيَـصْمُتُ النَّبْـعُ مَفْتُوْنَـاً بِهَمْـسَتِنَا
وَيَرْتَجِـي قُبْلَـةً مِنَّـا وَيَنْتَظِـرُ







وَالطَّيْـرُ يُنْـشِدُ مَـسْرُوراً يُغَازِلُنَـا
فَيُبْـدِعُ الـشِّعْرَ وَالألحَـان يَبْتَكِـرُ
وَتَنْثَنِـي نَـسَمَاتُ الـصُّبْحِ رَاقِـصَةً
فَتَنْتَـشِي طَرَبـاً بالْحُـبِّ ، تَنْبَهِـرُ
وَفي اللَّيَـالي تُنَـاجِي الْفُـلَّ عَاشِـقَةٌ
وَيَـشْتَكِي الـشَّمْسَ مُـشْتَاقاً لهَـا القَمَـرُ
وَيَهْجُـرُ الحِـصْرِمُ المَفْتُـونُ كَرْمَتَـهُ
إلى قُلُـوبٍ بِهَـا العُنْقُـودُ يُعْتَـصَرُ

***

أمَّـا أنـا فَاللَّيَـالِي بَعْـضُ ذَاكِرَتِـي
فِيْهَـا زَغَالِيْـلُ عُمْـرِي خَانَهَـا الْكِبَـرُ
قَـدْ كَـانَ جَهْلِـي بِـسِرِّ الْحُـبِّ مُعْضِلَةً
مَـا كَـانَ يَنْفَعُنِـي فِـي حَلِّهَـا حَـذَرُ
تَـأبَى الْحَبِيْبَـةُ إلاَّ أَنْ تُعَـالِجَنِي
بِرَشْـفَةٍ مِـنْ لَمَـىً مَـا بَعْـدَهُ خَطَـرُ
رُغْـمَ التَّفَـانِي لَـدَيْهَا فِـي مُعَـالَجَتِي
مَـا أَيْنَعَـتْ قُبَـلٌ أَوْ أَثْمَـرَتْ نُـذُرُ
رَاحَـتْ عَلَـى مَـضَضٍ تَنْعَـى مَـشَاعِرَهَا
مَلَّـتْ عِلاجِـي سُـدَىً فَاغْتَالَهَـا الـضَّجَرُ

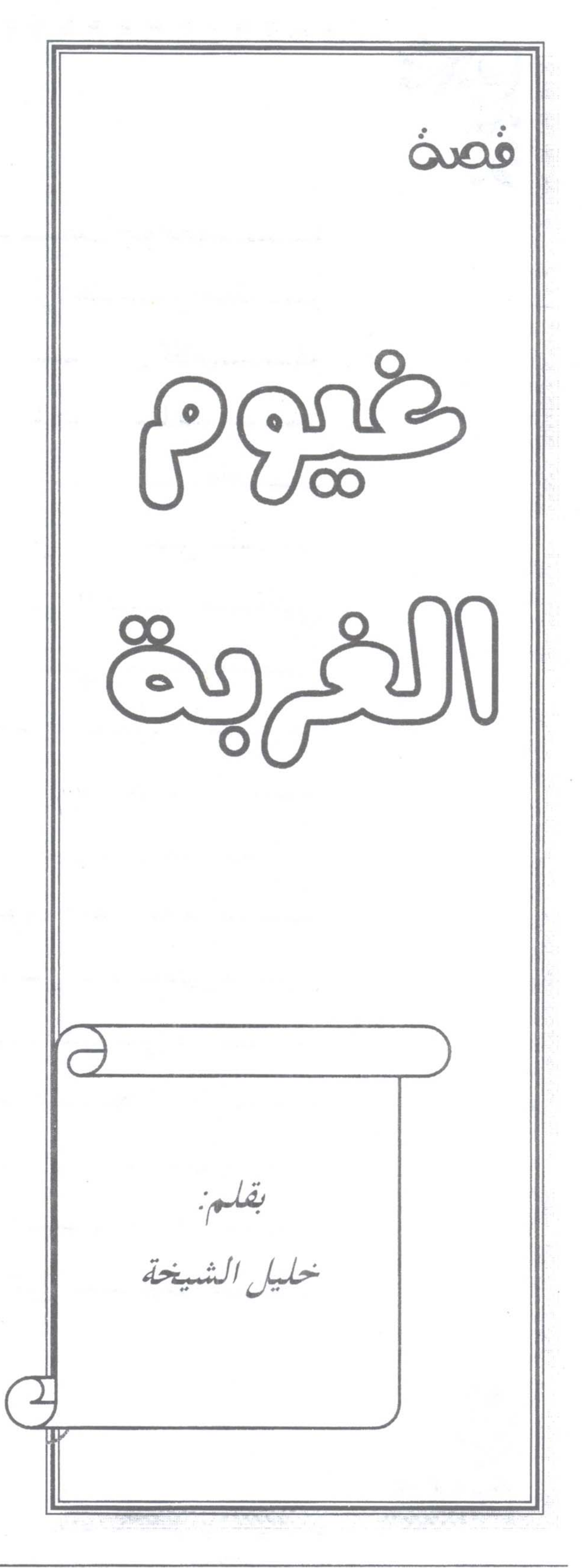






حتَّـــى إذا مَـــا رآنَـــا النَّبــعُ فِـــيْ زَعَـــلٍ
تجَـــرَّعَ الغَـــمَّ حَتَّـــى كَـــادَ يُحتَضَـــرُ
يَحْنُـــو عَلَـــيَّ يُواسِـــيْنِي بِبَـــسْمَتِهِ
وَالْحُـــزْنُ يَغْمُـــرُهُ والـــدَّمْعُ يَنْهَمِـــرُ
أرْنُـــو إلَيْهَـــا وَقَـــدْ شَـــاءَتْ مُفَـــارَقَتِي
فَيَـــسْقُطُ الْقَلْـــبُ مِـــنْ صَـــدْرِي وَيَنْفَطِـــرُ
حاوَلْـــتُ إطْـــلاقَ أشْـــوَاقِي لِنَاظِرِهَـــا
وكُلَّمَـــا رُمْـــتُ سَـــهْماً رَاحَ يَنْكَـــسِرُ
رَقَّـــتْ لِحَـــالِي ، دَنَـــتْ مِنّـــي لِتَـــصْفَعَنِي
بِقُبْلَـــةٍ ، بَـــلْ تُثَنِّيْهَـــا وَتَعْتَـــذِرُ
مَـــضَغْتُ قُبْلَتَهـــا الْحَـــرَّى وَقُلْـــتُ لهـــا
زِيْـــدِي فَقَلْبِـــيْ إذا مَـــا زِدْتِ يَزْدَهِـــرُ
أرْخَـــتْ جَـــدائِلِها غُنْجـــاً لِتَـــصْعَقَنِي
وَالحُـــبُّ يَـــسْرِي بِأَوْصَـــالِي وَيَنْـــصَهِرُ
وأمْطَرَتْنِـــيْ عِنَاقـــاً غَيْـــرَ عَـــاذِرَةٍ
خَـــوْفِي وَقَـــدْ مَـــسَّنِي مِـــنْ مَـــسِّها خَـــدَرُ
وَطَـــوَّقَتْنِي جَـــوىً مِـــنْ فَـــرْطِ حُرْقَتِهـــا
فَكَـــادَ فِـــي صَـــدْرِها الرُّمَّـــانُ يَنْفَجِـــرُ
قَالَـــتْ دَعِ الـــشَّوْقَ لا تَأْسُـــرْ لَوَاعِجَـــهُ
فَآسِـــرُ الـــشَّوْقِ لا يُقْـــضَى لَـــهُ وَطَـــرُ



أنا الآن، أقعد في حديقة المدينة أراقب غيوم السماء تتقاذفها الرياح نحو الجنوب، وأجتر ذكرياتي وألوك حيرتي، فقد بدأت قصتي بعد أن أنهيت دراستي الثانوية، وكنت أود أن أدخل الجامعة كي أدرس فرع الحقوق في كلية الآداب، إلا أن نصيبي قد أتى كما قالت أمي. نصحتني أن أتزوج وأترك الدراسة، وقالت لي أن ليس للبنت إلا بيتها وزوجها. تقدم لي شاب، في تلك الآونة، وقال بأنه مغترب من الولايات المتحدة الامريكية وأخبرنا أهله بأنهم سيجيؤون في الساعة الثامنة مساءً. وفي الساعة المحددة قرع الباب ففتحت أختي الصغرى، ودخلوا إلى غرفة الجلوس. وعندما أمرتني أمي أن أدخل بالقهوة حسب العادة المتبعة، فعلت، وجلست قبالة الشاب الذي يريد الخطبة. وهتفت أمه : ماشاء الله بنتكم مثل القمر، فخجلت من هذا الاطراء ولاحظت أن الشاب أخذ يسترق النظر إلي. وعندما حان وقت المغادرة رأيت أن الشاب ذو قامة طويلة وحسن المظهر، وقال لي عند المغادرة : يالله.. بخاطرك. ووجدت أنه لم يتكلم كثيرا ولم يشارك في الحديث. ومن جملة ماقاله أهله، فهو متخرج في مجال الكمبيوتر وعنده ثلاث مطاعم. وقالت أمي، والتي أعجبها الشاب، تمازحني: لن تجوعي أبدا ياسهام في امريكا، فخطيبك لديه ثلاث مطاعم. وتحددت الخطبة بسرعة، بسبب كما قال أهله، بأن عليه المغادرة بعد أسبوعين كي يسيّر أعماله هناك. وأصبح يأتي إلينا كل يوم يجالسني بالساعات. وبعد أن عقد قراني، غادر إلى أمريكا. قال سأقدم أوراقك من هناك ولن تأخذ المسألة أكثر من شهرين. وخلال هذا الوقت كان يتصل بي

كل أسبوع يخبرني بأنه اشترى عفش البيت واشترى غسالة جديدة وفعل كذا وصنع كذا. قال لي مرة على الهاتف : اسمعي ياسهام لا أريدك أن تتعبي في الغربة، سأحضر لك خدامة. ولأن أهلي بسطاء لم يسألوا عنه كثيرا فقد قالت أمي متباهية أمام صديقاتها بأن وليد (وهذا اسمه) شاب متعلم في الجامعات الامريكية ورجل أعمال يملك الملايين وعنده أكثر من ثلاثين عاملا تحت يده. ولأن أهلي فقراء بهرتهم أمريكا وبهرهم وليد بالهدايا التي كان يحضرها معه كل مرة يأتي بها إلينا. وبعد فترة ليست طويلة أتى الطلب إلى السفارة وأعطوني فيزا إقامة، وفي موعد السفر بكت أمي وأخواتي وتمنيت أن يكون أبي حيا ليراني، إلا أنه مات قبل ثلاث سنوات وكنا نعتمد على أخي الوحيد الذي كان يعمل موظفاً عند الدولة. وكنت كلما تذكرت أبي أترحم عليه وأدعو الله أن يوفقني في سفرتي وزيجتي إلى أمريكا. كانت أمي بعد كل صلاة تجلس على السجادة تتضرع إلى الله أن يساعدني في غربتي وأن يمسك بيدي ولايتركني. وعبرت الكثيرات من صديقاتي عن غيرتهن بأن قلن لي: لاتفرحي كثيرا فان الشباب الذين يعيشون في امريكا لاأمان لهم. لم أصدق وافترضت أن كلامهن أتى من الغيرة والحسد.

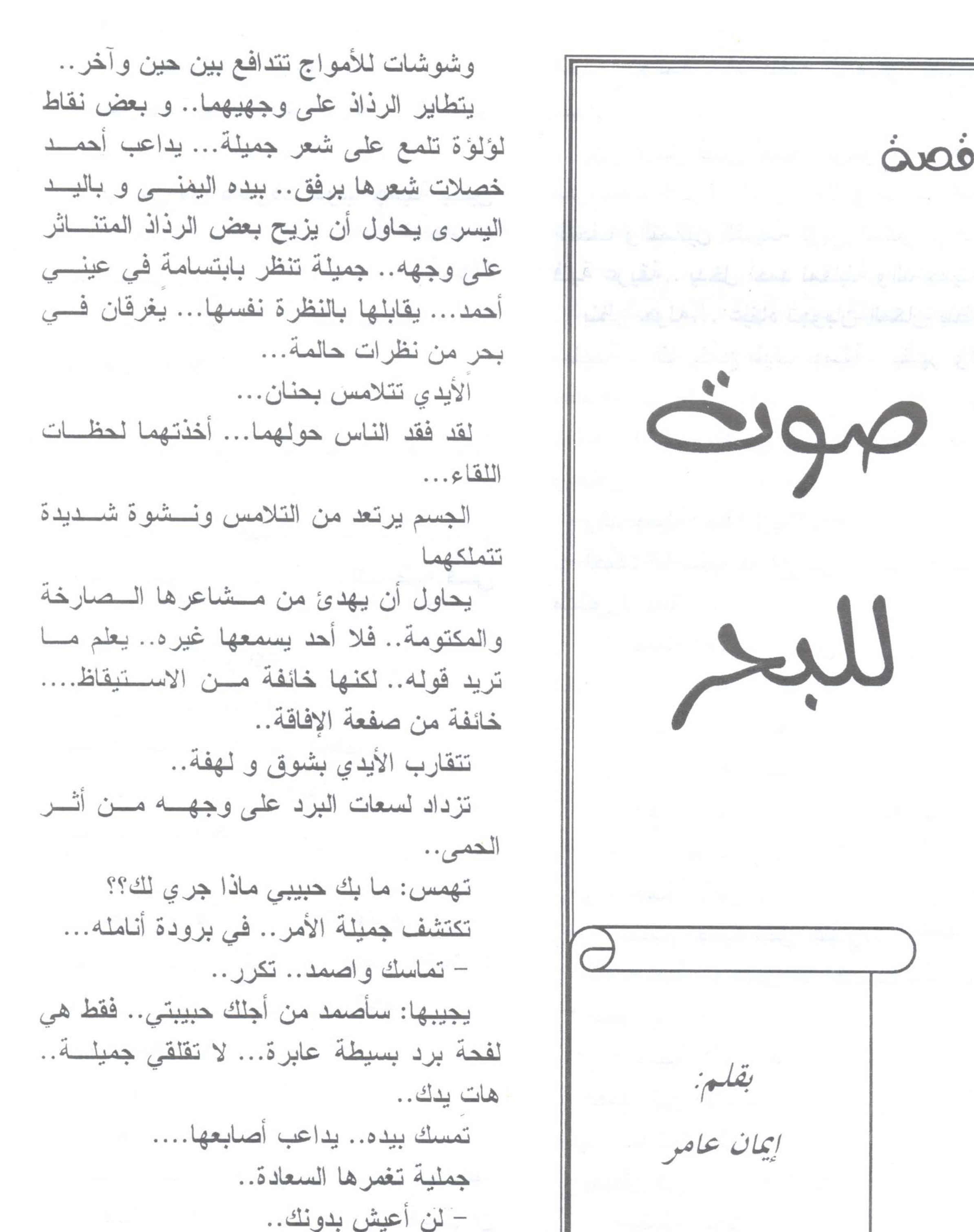
طارت بي الطيارة إلى أمريكا، بلاد المال وأفلام هيلوود. واسقبلني وليد في مطار شيكاغو. عندما خرجت من قسم الجمارك وجدته ينتظرني. من مطار شيكاغو، أخذني إلى ولاية نورث كارولينا ثم إلى راكي مونت. وهي مدينة صغيرة ليس فيها عرب كثير. ودخلنا إلى شقة ذات عفش متواضع فظننت أنها شقة أعدها من أجل شهر العسل. لكن اكتشفت أنها الشقة الوحيدة التي يسكن، وهي بالأجرة. فسألته عن البيت الذي أخبرني عنه على الهاتف فقال باعه كي يسيّر أعماله، فتركت الأمور دون تحري. بعد أسبوع من اقامته الدائمة في الشقة، سألته كيف يترك محلاته هكذا، من الأفضل أن يذهب إلى عمله ولايقلق علي، فقال شيئا تفاجئت له ولم اصدق في أول الأمر، وهو أنه باع كل محلاته وخسر أموالا كثيرة، فسألته كيف ؟ وماهو السبب ؟ فقال أنها قصة طويلة وسيخبرني عنها فيما بعد، وسألت: أين العفش الذي اشتريته ؟ فقال بأنه باع كل شيء. حاولت أن أفهم ماهو السبب وكيف خسر كل شيء ! فقال : الآن ارتاحي وسأخبرك في الوقت المناسب.

بعد شهر من إقامتي هناك، قال بأنه وجد محلاً في مدينة رالي، عاصمة الولاية. ذهبنا إلى هناك، لكن الأمور لم تتيسر مابينه وبين صديقه. فرجع يبحث عن عمل حتى وجد عملاً مع شاب عربي في البيتزا ديلفيري. فاندهشت لما يفعل. سألته لماذا تعمل بأجور رخيصة ومعك شهادة في الكمبيوتر، فرد بأن العمل صعب في هذا المجال بسبب المنافسة الشديدة. ومضى شهر أو اثنين فترك البيتزا وأصبح صعب المزاج وقلقا. كان حتى تلك اللحظة لم يخبرني عن أي شيء جرى له، وفي محض الصدفة كنا في حديقة تقع على بحيرة في رالي، فوجدنا شاباً عربياً مع زوجته وأطفاله. أتى الشاب وتكلم مع زوجي وكان يعرفه من قبل، فجلسنا معا وتعرفت إلى المرأة العربية واحببتها وذكرتني عندما تحدثت معها بأهلي وأخواتي وأخذت رقم هاتفها. وبعد أن رجعنا

إلى البيت قلت لزوجي دعنا ندعوهم إلى الغذاء في الاسبوع القادم، فقال بأنه لايحب العرب المقيمين هنا وأضاف بأنهم مثقلين بالمشاكل فسألت : ماهي المشاكل التي يسببونها له، فقال أنت لاتعرفين شيئاً، هم لايحبون بعضهم البعض ولايحبون الخير لأحد. فبكيت يومها. فسألني عن سبب بكائي ! فقلت : ما إن وجدت صديقة أرتاح إليها وأفرّج همومي وغربتي معها، حتى وضعت الأعذار كي ننقطع عن العالم. فرقّ قلبه لي وأخبرني أن أحتاط لهؤلاء فهم لايريدون الخير لأحد وسمح لي بأن أحادث صديقتي على الهاتف. لكنه كان حذرا. وفيما بعد عرفت سبب حذره. فهو يفعل هذا كي لاينكشف أمره معي. وأحببت سميرة كثيرا فهي امرأة عربية من الضفة الغربية من فلسطين وكانت تتعامل معي مثل اخت لي. ومرة كنا نتحادث في أمور الحياة، فسألتني : لماذا زوجي لايعمل عند زوجها في سوبر ماركت ؟ فقلت : زوجي لايحب العمل الا في مجاله الذي تخرج منه منذ سنوات. فسألت بسرعة : وماهو مجاله ؟ فقلت الكمبيوتر، فضحكت طويلاً حتى دهشت لها واستغربت طريقتها. فقالت وهي مازالت في ضحكتها: قلت مجاله الكمبيوتر. فقلت لها : وماهو الشيء المضحك هنا؟ فقالت : هل قال لك زوجك بأنه درس الكمبيوتر؟ فقلت نعم. صمتت، فاستغربت صمتها. قالت لي : زوجك يكذب عليك وأنا اقول لك هذا لأنك مثل أخت لي. بعد ان تحادثنا عرفت منها الحقيقة عن زوجي. فهو كان يسكن في رالي من قبل وهرب منها إلى راكي مونت بسبب ملاحقة الناس والديون المتراكمة عليه، وهو لم يذهب إلى الجامعة على الاطلاق، لأن زوجها يعرفه منذ عشر سنوات وهو لم يكن يملك أي مطاعم، ولا حتى بيت. وعرفت بأني خدعت في هذا الزواج ولم أخبر أهلي بما اكتشفت. عندما واجهته مرة بالحقيقة، غضب وكشر عن أسنانه وسأل : من أخبرك هذا الكذب؟ أهي سميرة ؟ بعد ذلك، منعني من الكلام معها ثم غير رقم الهاتف برقم جديد، وكلما وجدني أبكي لوحدتي وغربتي يتركني ويغادر البيت. وأتى مرة إلى البيت مخمورا وشتمني فارتعبت منه واختبأت في غرفة النوم، فأخذ يطرق على الباب بشدة ويصرخ مما زاد خوفي.

كانت الأيام تمضي وسكره يزداد. ومرة قرع الباب، ففتحت واذ بفتاة أمريكية شقراء وسمينة جدا تسأل عن وليد فخرج معها وقال لي سيعود بعد قليل. لكنه أتى اخر الليل مخموراً وأخذ يصرخ. لكن آخر مرة اتت الفتاة الامريكية إلى البيت، اخذته ولم اراه بعدها. انتظرت يومين أو ثلاثة فلم يرجع. فاتصلت بصديقتي سميرة وأنا أبكي من شدة خوفي. فأتت وأخذتني إلى بيتها، ومنذ ذلك الوقت لم أر زوجي. البعض قال أنه رآه في ديترويت والاخر قال بأنه ذهب إلى شيكاغو.

والآن، أقعد في احدى حدائق المدينة أراقب غيوماً تتقاذفها السماء نحو الجنوب، أجتر ذكرياتي وألوك حيرتي. كيف سأرجع إلى أهلي خالية الوفاض وفاشلة حتى في زواجي!



وشوشات للأمواج تتدافع بين حين وآخر..

يتطاير الرذاذ على وجهيهما.. و بعض نقاط لؤلؤة تلمع على شعر جميلة... يداعب أحمد خصلات شعرها برفق.. بيده اليمنى و باليد اليسرى يحاول أن يزيح بعض الرذاذ المتناثر على وجهه.. جميلة تنظر بابتسامة في عيني أحمد... يقابلها بالنظرة نفسها... يغرقان في بحر من نظرات حالمة...

الأيدي تتلامس بحنان...

لقد فقد الناس حولهما... أخذتهما لحظات اللقاء...

الجسم يرتعد من التلامس ونشوة شديدة تتملكهما

يحاول أن يهدئ من مشاعرها الصارخة والمكتومة.. فلا أحد يسمعها غيره.. يعلم ما تريد قوله.. لكنها خائفة من الاستيقاظ.... خائفة من صفعة الإفاقة..

تتقارب الأيدي بشوق و لهفة..

تزداد لسعات البرد على وجهه من أثر الحمى..

تهمس: ما بك حبيبي ماذا جري لك؟؟

تكتشف جميلة الأمر.. في برودة أنامله...

- تماسك واصمد.. تكرر..

يجيبها: سأصمد من أجلك حبيبتي.. فقط هي لفحة برد بسيطة عابرة... لا تقلقي جميلة.. هات يدك..

تمسك بيده.. يداعب أصابعها....

جملية تغمرها السعادة..

- لن أعيش بدونك..

أحمد يبتسم.. يهمس:

- أحبك جميلة.. لن أتخلى عنك حبيبتي..

لمسات حانية منه علي وجهها..

يريد أن يأخذها بين ذراعيه..
يتحسس وجنتها الوردية... يتلمس أهداب رموشها..
تقترب هي من صدره.. تذوب جميلة بين يديه.. تعانقه..
يضمها لصدره..
تزداد ثورة الأمواج.. تتلاطم بشدة..
تتلامس رأسيهما..

يمرر شفتيه على أناملها..لكن يزداد رعشة وحمى..
ترتمي جميلة في حضنه.. تتهامس الشفاه..
تنسى نفسها بين أنفاسه.. دقات قلبه في خفقان مستمر..
تقترب منه أكثر و أكثر..
يذوبان في شهقات ودقات..
لحظة صمت منعزلة عن العالم...
تنهدات... توهان... ذوبان
تتحسس درجة حرارته..
- ما بك حبيبي؟
- فقط هي لفحة برد بسيطة عابرة..
تتقارب الأيدي بشوق و لهفة.. تزداد لسعات البرد على وجهه من أثر الحمى..
تسأله بلهفة:
- ما بك ماذا جري لك؟
- لا تقلقي جميلة موعدي غدا للقاء أبيك
يذهبان.. تلملم الطريق أقدامهما.. يأخذهما الفكر بعيداً.. فالأيدي لا تفترق... قبل أن يبتلعهما المفترق يقول لها:
- موعدنا غداً جميلة.. غداً ستتراقص لنا المرايا..غداً نلتقي ويعزف لنا الحب علي أوتار الليالي الحالمة.. غدا تتفتح الزهور بقدومك حبيبي..
بهو كبير في أحد البيوت العريقة.. مفروشات فاخرة متناثرة هنا وهناك..أفخم التحف والتماثيل القديمة تزين المكان لوحات فنية عريقة.. يدخل أحمد لمقابلة والد جميلة..
ينظر حوله... عيناه تجوبان المكان بنظرات متلهفة.. عله يلمح طيف جميلة.. يظهر والد جميلة؛ رجل كبير تظهر علي ملامح وجهه تجاعيد الأيام.. يلقي السلام علي أحمد ويجلس..
والد جميلة: ماذا تريد؟
أحمد: أنا شاب مكافح من أسرة بسيطة ميسورة الحال...
والد جميلة: ماذا تعني من وراء هذا الكلام..
يرد عليه بلسان متلعثم:
- أريد الارتباط بجميلة..
والد جميلة: ماذا تقول.. جميلة ابنتي...؟!
أحمد: نعم يا عمي جميلة ابنتك
والد جميلة ينهره بشدة:
- أجننت.. طلبك ليس عندي..
أحمد: لماذا يا عمي أنا أحب جميلة، أريد الارتباط بها.
والد جميلة: الحب هراء..
أحمد: إني أحب جميلة يا عمي لا تحرمني منها.. جميلة حياتي
ينهض في غضب قائلاً له:
- المقابلة انتهت..
يتركه.. يخرج
أحمد.. حلمه ينهار أمام عينيه.. يخرج من البيت بخطوات مثقلة.. تائه لا يدرك الطريق..

جميلة ترقب خروج أحمد من البيت.. تقف في شرفة غرفتها.. عيناها ممتلئتان بدموع تنهمر مثل اللؤلؤ المنثور..

أحمد يقف..يقول لها:

- موعدنا غداً عند الصخرة يا جميلة..عند غروب الشمس

خرجت جميلة من بيتها... إلى حيث تسكن الروح... كي تستريح وتهدأ ثورتها... هناك عند الصخرة... التي تجلس إليها لساعات طويلة.... ترقب الشمس المنسدلة، وهي في أحضان البحر.... إلى مرقدها، تذهب الشمس كل يوم، بين أحضان البحر... تعشق دفء البحر وسكونه وغضبة....تعانق جميلة البحر بعينيها... تتأمل وتبكي في حرقة... ماذا افعل أمام جبروت أبي وقسوة قلبه علي... لقد أغضب أحمد،ورفض طلبه.... أحمد غاضب ولن أراه بعد اليوم....

ماذا افعل حدثيني.....انطقي يا صخرتي أنت الشاهد علي حبي، وفرحتي ودمعتي...لحظة غرق في أحزانها......مدت إليها يد لتلمس يدها...تنتفض جميلة وتفيق من غفوتها علي يدي أحمد.... يسكن لهيب ثورتها.. ترفع عينيها إليه... يمد أحمد يده... كي يمسح دموع جميلة... في حنو وعطف... يأخذ يدها يطبع عليها قبلة...

الأيدي الآخرى... تمسح الرذاذ الذي يتطاير من أمواج البحر المتلاطمة.....في غضب من أجل جميلة وبكائها...

جميلة: لا تغضب من لقاء أبي!

أحمد: هذا هو المتوقع جميلة..

تبكي جميلة أنا لا أريد إلا أنت...

أحمد: والدك يقول الحب هراء..

جميلة: حلمي يتناثر مع رذاذ المياه علي الشاطئ الرملي يتسرب يذهب في مهب الريح.. هذه هي النهاية..

يصمت أحمد.. تكرر جميلة: هذه هي النهاية؟

أحمد: كل شيء فقد معناه..

جميلة:لا تقل هذا.. حبنا موجود والصخرة شاهدة علينا والبحر وكل من حولنا ولقاؤنا..

أحمد: نعم جميلة أصبحت لا أجد نفسي إلا هنا معك

يطبع قبلة على جبينها..

أحمد: لا تبكي جميلة.. دموعك تحرقني..

جميلة: لا تتركني.. افعل من أجلي كل شيء..

أحمد: لن يأخذوك مني..

تلتقط جميلة أنفاسها وتصمت لبرهة.. سكن الليل أوصال المكان... الجو أصبح مظلما من حولنا...

- لا بد لنا أن ننصرف...

- أشتاق إليك جميلة... سأفعل ما بوسعي... لن افقد الأمل في الارتباط بك... أبداً..

البحر يضحك، و أمواجه تتلاطم، كأنها وحوش تتصارع، بينما كان جسدا أحمد وجميلة يضعان خاتمة، لمعاناتهما، لم تخطر يوما على خاطرهما، ولو محض خيال، ونزق!!

قصة

مدينة العجائز

بقلم:
مظفر عبدالكريم الحيدري

ثلاثون عاما والأيام تمضي لتزيد من همها، أمنيات الأمس باتت تتجدد كل يوم. حاولت الهروب من واقعها، فجلست إلى النافذة، مطلقة العنان لأفكارها لتحلق بعيدا... بعيدا في ذلك الأفق الواسع.

خيال مدينة داعب عينيها، دخلتها، تجولت بين جنباتها، عبرت أزقتها، يا الله ما لهذه المدينة، بيوت، محلات، أسواق،... لايرتادها إلا القليل حتى بدت وكأنها خاوية...!

حيرة انتابتها، تساؤلات راحت تنهمر على مخيلتها، لماذا هذه المدينة شبه مهجورة...؟

شد انتباهها صوت سعال ينطلق من زاوية، فلم تشعر إلا وقدماها تسرعان نحوه، ولشد ما كانت دهشتها عندما وقعت عيناها على رجل كبير السن، ذو لحية بيضاء، جلس على كرسي خشبي أمام أحد البيوت، ترددت أتكلمه، أم تولي هاربة،... تشجعت... سحبت قدما إثر قدم... ألقت بالسلام، رفع رأسه ناظرا إليها: وإذا به يرى علامات تعجب وخوف رسمت على محياها، فما كان منه إلا أن رد عليها السلام ليهدئ من روعها

- وعليك السلام أيتها الفتاة، أعلم سؤالك يابنيتي، وكيف علمت سؤالي ياعم...؟

وضع يديه المرتجفتين فوق بعضهما البعض لتغادر فمه آه مُحَمّلة بلهيب يدلُّ على ما يعتلج في الداخل، ثم قال:

- حتماً سيكون نفس السؤال الذي طالما سألني إياه العابرون

وإذا بالسعال يعاوده.

انتظرت حتى هدأت جوانبه، فقال بصوت متهدج:

- كانت مدينتنا آهلة بالسكان، وهذه البيوت تدل عليها.

قالت وقد بدت علامات التعجب على وجهها:

- ولكن أين اختفى سكانها...؟

- يا بنيتي إنَّ القصة طويلة.

زاد شغفها لسماع قصة المدينة، فاقتربت منه دون انتباه لتجلس على عتبة الباب، بينما تحركت يدها لتضعها على كتفه:

- بالله عليك أخبرني.

- إنّ أهل هذه المدينة كانوا من الأغنياء، وشاء القدر أن تبور تجارة معظمهم، ولقد اعتاد الجميع عند تزويج بناتهم على المبالغة في الطلبات، مباهاة أمام الآخرين،ولما آلت بنا الحال إلى ما نحن عليه، تشبث أهل كثير من البنات بعاداتهم، فهاجر من الشباب من هاجر، وعزف عن الزواج من عزف، فعنست بناتنا، وقل شبابنا، وفشت الفاحشة، وشيئا فشيئا، اضمحلت مدينتنا، حتى أضحت مدينة العجائز.

صحت الفتاة من ذهولها، غير مودعة ذلك العجوز، لتفيق على واقع يشابه ما خالط خيالها.

عادت لتنظر أمها وهي تحطم آمالها، لقد انقلب حبها لنا إلى خوف من المستقبل، ترى هل سيتحقق ما أصبو إليه، أم لا...؟ لم أعد تلك الفتاة الصغيرة التي تتلهى بألعاب ساذجة، فتراها تبني بيتا من بلاستيك، وتضم لعبة إلى صدرها... آه كم حلمت بمملكة صغيرة يملؤها الحنان، وشدو أطفال ينبعث من هنا وهناك، إنني أخشى أن يضمحل الحلم...

- أمي ألا تلاحظين ذلك، أم سننقلب إلى مدينة الجائز.

تعجبت الأم من كلام ابنتها، وقالت:

- ماذا تقصدين...؟

- لاشيء... لاشيء.

- يابنيتي أنت في مقتبل الشباب.

- إن الحياة حافلة يا أمي، لطالما قطعت المسافات مخلفة أناسا انشغلوا عنها فلم يلحقوا بها.

- ولكن الحافلة لابد أن تعود من حيث بدأت.

- نعم يا أمي لابد أن تعود حاملة جيلا جديدا.

قطعت الأم كلامها، لتجيب على هاتف كان يتقلب بين كفيها، بينما تسللت قدما الفتاة إلى الشرفة، علها تنعم بشيء من الهدوء. قطعة قماش أسدلت، أخذ الهواء يداعبها، فتكشفت عن حصيرة اعتلتها طاولة صغيرة، أحاطت بها مقاعد من البلاستيك، بينما تمدد جانبا على قطعة من الإسفنج شاب راح يغط في نوم عميق، مسكين هذا الشاب، لابد أنه يعاني ما أعاني، مضت عشر سنوات وهو مستأجر لذلك المنزل، تمنيت لو تحسن وضعه، إنه يخرج صباحا، ليعود مساء وقد أخذ منه التعب كل مأخذ، لينقلب سريعا إلى النوم. رفعت رأسها إلى السماء، وسرعان ما دخلت غرفتها لتغلق

الباب دونها، تاركة لجسدها أن يهوي على الفراش.

أطبقت جفنيها، إنه يعيش الضنك، كم من شاب من هذا القبيل تقدم طالبا يدي، رفضته أمي، سألت أحدهم عن الزواج، قال، والحزن باد على عينيه:

- ذلك السهل الممتنع،

فوجئت بجوابه، وقلت:

- وكيف ذلك...؟ قال:

- إنها كلمة سهلة على اللسان، عظيمة المعنى، تتطلبها كل نفس، ممتنعة على كثير من طلابها، قلت:

- وكيف...؟ هز رأسه، أطرق، رفعه ناظرا إلي، أتبعها بآه شعرت بلهيبها وهي تغادر فمه:

- ساعد الله الشباب، إنهم عبثا يحاولون العمل، ليجمعوا ما استطاعوا جمعه من مال ليفاجأوا بمجتمع لايعرف الرحمة، ولا يمت إلى الإنسانية بصلة.

شعرت وكأنه بالغ في قوله، فقلت:

- لاتقل هذا... قال والألم يعتصره:

- ألم أقل لك، وبدون شعور، فتح الباب ليشير إلى والدتي:

- اسألي أمك...؟

عدت إلى غرفتي، وقد أخذ مني الحزن كل مأخذ، بينما جثمت أفكاره في داخلي، مما فتح أمامي باب تحليل للمجتمع، إنه عالم قاس...، هرعت إلى أمي:

- أمي... أمي... لماذا هذا الظلم...؟

نظرت إلي مبتسمة:

- هدئي من روعك، قلت وقد بدت علي علامات الغضب:

- إذا لماذا هذا التعجرف... هل يملك كل إنسان ما تطلبين...؟

- لكن المال هو سبب السعادة هذا رأيك...؟

- نعم وإذا لم يحضر الذي تتمنين...؟

- كوني على ثقة من مجيئه.

أيام تمضي وهي لاتفتأ تتصل بصديقاتها، مستفسرة عن أحوالهن، لقد تزوجت إحداهن دون موافقة أهلها، والثانية لم تعد تفكر بالزواج لأسباب خاصة كما يقال. أسرعت الأم إلى الهاتف:

- ألو... ألو... نريد موعدا.

عادت إلى ابنتها على جناح السرعة، وقد علت وجنتيها بسمة عريضة...

- ابنتي... ابنتي...! ماذا بك...؟ اليوم وفي تمام الساعة السابعة مساء سيأتي خاطب لك، هو الخاطب المنتظر.

وفي تمام الساعة السابعة، سيارة فخمة وقفت، لينزل منها أشخاص، دخل الجميع المنزل، وكان على رأسهم ذلك الخاطب الذي تجاوز الستين عاما

إنه زوجك يا حبيبتي.